نظم القرابة: مفاهيم أساسية

علاقات القربى في المجتمعات التقليدية هي التي تحدد سلوك الأفراد وولاءاتهم وانتماءاتهم، وهي الركيزة الأساسية التي يقوم عليها تنظيم المجتمع وتسيير مجمل العلاقات فيه وتنظيم النشاطات الاقتصادية والسياسية في مجتمعات تفتقر للتنظيمات العصرية، مثل الجماعات المهنية والدولة المركزية بمختلف مؤسساتها. من هنا جاء اهتمام الأنثربولوجيين بدراسة الأنساق القرابية التي شكلت منذ البداية أهم المرتكزات التي انبثق منها علم الأنثروربولوجيا كتخصص مستقل لتتفرع عنه مباحث أخرى مثل أصل العائلة البشرية وأنماط القرابة وأشكال الزواج والطوطمية وتحريم زواج المحارم incest taboo. دراسة الأنساق القرابية تعد من أهم الإنجازات التي حققتها الأنثروبولوجيا، فهي المتكأ الذي تستند عليه أهم المناهج والنظريات الأنثروبولوجية من النظرية التطورية إلى المنهجية الوظيفية إلى البنيوية.

مصطلحات القرابة

مفهوم العائلة من المفاهيم البديهية وحقائق الحياة الأساسية التي يعيها الإنسان وتشكل محددا من أهم محددات الطبيعة البشرية وعنصرا من أهم عناصر الثقافة التي يتميز بها الجنس البشري، مثلها مثل اللغة وانتصاب القامة واستخدام الأدوات. العائلة هي النواة التي يقوم عليها بناء المجتمع واستمرارية بقائه. طبيعة الحياة البشرية تفترض وجود العائلة كشرط أساسي لاستمرارية وجود الجنس وقيام المجتمع الإنساني. فوجود الأب ضروري ليس فقط لتلقيح الأنثى وإنما لحمايتها وإطعامها هي وجنينها لعجزها أثناء فترة الحمل والولادة التي تمتد لعدة أشهر عن الدفاع عن نفسها وعن تحمل مشقة البحث عن القوت لها ولرضيعها. كما يحتاج الطفل لسنين طويلة ليصبح قادرا على الدفاع عن نفسه وتحمل أعباء الحياة بنفسه ومواجهة مخاطرها ويحتاج إلى رعاية أمه وأبيه. كما يحتاج إلى سنين لتعلم المهارات اللازمة للعيش والبقاء والتي هي ليست غريزية يرثها بيولوجيا وإنما ثقافية يتعلمها من خلال التربية والتنشئة الاجتماعية. ونتاج العائلة البشرية من الأطفال قليل جدا قياسا ببقية الحيوانات، لذا يصبح الحفاظ عليهم ورعايتهم ودرء الأخطار عنهم حتى يبلغوا سن الرشد أمرا ضروريا لاستمرار الجنس وبقائه.

لا يقتصر دور العائلة على إشباع الرغبة الجنسية وإنجاب الأفراد الذين يضمنون استمرارية وجود المجتمع وبقائه، بل إن العائلة تضطلع بأدوار أخرى أساسية لعل أهمها التنشئة الثقافية والاجتماعية والدور الاقتصادي والمعيشي وتحديد الانتماءات والمكانات الاجتماعية. لنفهم أهمية شبكة العلاقات القرابية في المجتمعات البسيطة علينا أن نتذكر بأن المجتمع ما هو إلا جماعات وزمر من الأفراد منظمين وفي نفس الوقت متمايزين. بموجب هذا التنظيم والتمايز تبرز التراتبية بين أعضاء المجتمع بحيث تتوزع بينهم المكانات والأدوار. في المجتمعات الصناعية يضمحل دور العلاقات القرابية لتحل محلها اعتبارات ومعايير أخرى لفرز الأفراد وتصنيفهم في فئات فرعية وجماعات ثانوية داخل المجتمع يتم توزيع الحقوق والواجبات فيما بينهم

وفق إجراءات وأساليب غاية في التعقيد، من تقسيم الناس إلى مذاهب وأعراق إلى توزيع العمل الذي يتم بموجبه فرزهم في نقابات وجماعات مهنية مختلفة تحكمها اعتبارات تراتبية لكل منها ومناصب متدرجة لا حصر لها. وهكذا تنشأ الاختلافات في الثروة والقوة والسلطة وغير ذلك من المعايير التي تقسم الناس إلى طبقات وتحيل الحقيقة الطبيعية التي يولد الناس بموجبها سواسية إلى حقيقة اجتماعية مغايرة تفرق بينهم وتوزعهم إلى مراتب من الغنى والفقر ومن القوة والضعف. هذا في المجتمعات الصناعية. أما المجتمعات البدائية فإن معاييرها في فرز البشر ومميزتهم أكثر بساطة وأقل حدة. أهم هذه المعايير هي العمر والمولد والجنس (ذكر أم أنثى). هذه أمور لا يكتسبها الإنسان بجده واجتهاده، فهي من حقائق الحياة الثابتة التي يشترك فيها كل البشر. مهما صعد المجتمع أو نزل على سلم التطور فإنه لا يستطيع عمل أي شيء إزاء السن والجنس والمولد، فأنت لا تختار جنسك ولا أمك وأبيك. لكن المجتمع يستطيع تشكيل هذه الحقائق الكونية الثلاث وتوظيفها كمعايير لفرز البشر وتصنيفهم، خصوصا صلات القربى والنسب التي يحددها المولد.

تبدأ دراسة النسق القرابي بجمع ودراسة المصطلحات القرابية التي يستخدمها أفراد المجتمع وهي نوعان؛ مصطلحات تستخدم للإشارة للأقارب والتحدث عنهم terms of reference ومصطلحات تستخدم لمخاطبتهم والتحدث إليهم terms of address. هذه هي اللبنة الأولى التي عادة ما يبدأ منها الباحث الأنثروبولوجي. لكن علينا أن نتذكر بأن المصطلحات القرابية –على أهميتها– ليست هي المقصودة بعلاقات القربى. المقصود بعلاقات القربى منازل القرابة التي تشير لها المصطلحات. إننا نبدأ بدراسة المصطلحات القرابية ليس لأنها هدف بحد ذاتها وإنما لأنها أول خطوة نخطوها على الطريق الذي نسلكه للتعرف على منازل القرابة التي تشكل اللبنات الأساسية للنسق القرابي. كما علينا أن ننبه من البداية إلى أننا، بحكم الضرورة، نستخدم في حديثنا عن هذا الموضوع مصطلحات القرابة العربية لنتمكن من التواصل مع القارئ العربي لكن مع الأخذ بعين الاعتبار أن أي مصطلح نستخدمه قد لا يعني ذات الشيء تحديدا عند من يتكلم لغة أخرى وينتمي لثقافة غير ثقافتنا ومجتمع غير مجتمعنا له طريقة تختلف عن طريقتنا في تتبع النسب وفي فرز الأقارب وتصنيفهم. كل هذه المسائل سوف تتضح لنا تدريجيا في الصفحات اللاحقة.

هناك فرق بين خانات القرابة kin types التي هي حقائق بيولوجية تناسلية ومنازل القرابة kin classes/ kin categories التي هي حقائق اجتماعية. لو نظرنا إلى القرابة من الناحية التناسلية، أي الجينيولوجية genealogical relations، لوجدنا أن هناك خانة قرابية محددة لكل قريب من الأقرباء على المشجر القرابي. وهناك خانات قرابية لا يمكن أن تبقى شاغرة ولكن في نفس الوقت لا يمكن أن يحتلها أكثر من فرد واحد مثل خانة الأم أو خانة الأب، فأنت بيولوجيا لا يمكن أن يكون لك أكثر من أم أو أكثر من أب لكن وجود الأم والأب ضروري لخروجك إلى الحياة. وبالمقابل هناك خانات قرابية قد يحتلها عدة أفراد وقد تكون شاغرة كأن يكون لك عدد من الإخوان ولا يكون لك أخوات أو أن يكون لك عدد من البنات ولا يكون لك أبناء أو أن لا يكون لأمك إخوان مما يعني أنه لن يكون لك قريب تطلق عليه مصطلح خال وتبقى هذه الخانة شاغرة، أو أن لا يكون لأبيك إلا أخت واحدة مما يعني أنه لن يكون لك إلا قريبة واحدة تطلق عليها مصطلح عمة وتشغل هذه الخانة. فإخوان أمك مثلا مهما كثر عددهم يحتلون نفس الخانة القرابية، التي هي خانة الخال، وكذا إخوان أبيك وإخوانك وأبنائك وغيرهم من الأقارب في المشجر القرابي كل منهم يحتل خانة قرابية تخصه دون غيره. هذه الخانات القرابية تحددها العلاقات البيولوجية بين الأفراد، لذا فهي لا تختلف بين هذه الثقافة

وتلك، ولا حتى بين الإنسان والحيوان.

هذا من ناحية الخانات القرابية التي تعكس واقع العلاقات الجينيولوجية التناسلية، أما من ناحية المنازل القرابية التي تعكس واقع العلاقات الاجتماعية فهناك فرق بين أن يكون لأبيك مثلا أخوين تطلق على كل منهما مصطلح واحد هو مصطلح عم بحكم احتلالهما نفس الخانة على المشجر القرابي وأن يكون لأمك أخوين تطلق على كل منهما مصطلح خال، وبذلك تفرق اصطلاحيا بين خانة العم وخانة الخال وتنزلهما منزلتين قرابيتين متمايزتين بحكم احتلالهما خانتين مختلفتين على المشجر القرابي، وبين أن تدمج أخا أبيك وأخا أمك في منزلة قرابية واحدة وتطلق عليهما مصطلحا قرابيا واحدا. الخال والعم يحتل كل منهما منزلة قرابية مستقلة في نسق القرابة عند العرب لكنهما يحتلان منزلة قرابية واحدة في نسق القرابة الإنجليزي هي uncle. وهكذا فإن المصطلح القرابي قد يختص بخانة قرابية واحدة لا غير وقد يشمل أكثر من خانة، كذلك الحال بالنسبة للمنزلة القرابية. والخانة القرابية الواحدة بدورها قد تُجَزّأ إلى أكثر من منزلة قرابية، كما في المجتمعات التي تميز اصطلاحيا بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر، مثلا. لذا فإن منازل القرابة ومصطلحاتها لا تعكس حقيقة العلاقات البيولوجية وتتفق معها تماما كما تتفق معها المشجرات الجينيولوجية التناسلية مثلا، إذ لو كان ذلك كذلك لما اختلفت المجتمعات والثقافات في أنساقها القرابية، حتى لو اختلفت المصطلحات اللغوية التي تطلقها على الأقرباء.

دراسة النسق القرابي لا تعني دراسة السلالات المتناسلة بيولوجيا وإلا لما كانت هناك فروقات بين مجتمع وآخر، فكل الناس سواسية في هذا الأمر، بل لما كانت في ذلك خلافات بين البشر وغيرهم من الحيوانات. دراسة النسق القرابي هو تفحص الطرق التي يتم بها فرز الخانات القرابية في منازل قرابية لكل منزلة منها مصطلحا قرابيا يخصها وتفحّص ما يقوم بين هذه المنازل القرابية والخانات من ترابط نسقي وعلاقات اجتماعية، وهنا يكون الفرق بين دراسة أنساب البشر ودراسة سلالات الخيل مثلا. وقد تختلف المجتمعات أو تتفق في الطرق التي يتم بها فرز الخانات القرابية وتصنيفها في منازل قرابية، ولكن حتى لو اتفقت في طرق التصنيف فقد تختلف لغاتها في المصطلحات القرابية كمصطلح أب أو أخ مثلا، لكن الأب كمنزلة قرابية يبقى مع ذلك هو الأب بالرغم من اختلاف المصطلح اللغوي في حال المجتمعات التي تتبع نفس النسق القرابي.

تتضمن العلاقات القرابية ثلاث مؤشرات؛ المؤشر البيولوجي المنبثق من علاقة التناسل الطبيعية الناتجة عن الاتصال الجنسي بين الذكر والأنثى والتي تعكسها الخانات القرابية على مشجر النسب، والمؤشر السلوكي المرتبط بكل منزلة قرابية والمتمثل في العلاقات والالتزامات المتبادلة بين الأقارب، والمؤشر اللغوي المتمثل في المصطلحات التي نطلقها على منازل القرابة ونستشف من خلالها طرق تصنيف الأقارب في هذا المجتمع أو ذاك (Radcliffe-Brown 1930: 43-4). حينما نتحدث عن المنازل القرابية والعلاقات فيما بينها فإننا لا نتحدث فقط عن العلاقات البيولوجية التي تمليها الطبيعة بين الوالد والولد ولا نتحدث عن أشخاص بأعينهم ولا يهمنا أي شخص يحتل هذه المنزلة أو تلك. إننا نتحدث على وجه العموم والتجريد عن مكانات ومراتب اجتماعية ترتبط بها أدوار وأنماط من السلوك، نتحدث عن مخطط لمواقع اجتماعية يحتلها أشخاص تقوم بينهم علاقات مشحونة بالمشاعر والتوقعات والالتزامات المتبادلة. فالعلاقة القانونية والاجتماعية التي تربطك بأبيك غير تلك التي تربطك بابنك أو حفيدك أو جدك، وغير تلك التي تربطك بعمك أو بخالك، والعلاقة

التي تربطك بأخيك غير تلك التي تربطك بأبناء عمومتك أو أبناء خؤولتك. ويختلف تصرفك تجاه كل واحد من هؤلاء وشعورك نحوه والتزاماتك تجاهه باختلاف درجة القربى وطبيعة العلاقة التي تربطك به (Fortes 1969: 60-84; Lowie 1968: 39-40). يمكننا مثلا أن نفترض بأن التفريق اللغوي بين مصطلحي عم وخال في الثقافة العربية التي تتبع خط نسب ذكوري عن طريق الأب إنما يعكس الفوارق في المنازل القرابية التي يحتلها هذان القريبان وفي مشاعر المتكلم نحوهما وما يترتب على ذلك من أدوار وحقوق وواجبات، علما بأن كلا منهما يحتل نفس المسافة الجينيولوجية من الناحية البيولوجية، على خلاف اللغة الإنجليزية التي لا تفرّق بينهما وتطلق على كليهما مصطلح uncle، لأن المجتمع الإنجليزي بتشريعاته وقوانينه وتتبعه للنسب لا يفرق بين الأقرباء من جهة الأم والأقرباء من جهة الأب (Radcliffe-Brown 1952: 6-7; Radcliffe-Brown *et al* 1967: 7, 9). ولتوضيح هذه المسألة فيما يخص الأدوار المتوقعة من كل منزلة قرابية عمد الأنثروبولوجي الأمريكي بول بُوهانَن Paul Bohannan إلى المثال التالي (Bohannan 1963: 70): يقول بينما كنت أجري دراسة حقلية على جماعة التيف Tiv في نيجريا لاحظت أن أحدهم لو أراد أن يصلح خطأي في اللغة ناداني: ياإبني، وإن أراد مني أن أقف إلى جانبه في نزاعه مع شخص آخر ناداني: ياابن أمي، وإن أراد أن يقدم لي شرابا ناداني بمصطلح غير قرابي قائلا: ياصديقي، وإن أراد أن يطلب مني شيئا ناداني: ياأبي (كما تقول حينما تترجى صديقك وتطلبه شيئا: يابيّي [تصغير أبي] طلبتك).

المنازل القرابية ليست وحدات مستقلة أحدها عن الآخر، بل هي ترتبط بعلاقات ثنائية تبادلية محددة بضوابط وأنماط متعارف عليها من التعامل والسلوك، فلا والد بدون ولد ولا زوج بدون زوجة ولا جد بدون حفيد ولا عم بدون ابن أخ أو بنت أخ، وقس على ذلك. لكن وظيفة هذه الثنائية اللغوية لا تنحصر فقط في إعطاء تعريف لغوي لكل طرف من طرفيها، وإنما تتعدى ذلك لتحدد السلوك المتوقع والالتزامات المتبادلة بين من يحتلون هذه المنازل القرابية. وهكذا تشكل منازل القرابة وحدات مترابطة في شبكة من العلاقات البنيوية بحيث تشكل في مجموعها نسقا متكاملا يقوم على مجموعة من السمات التي تمايز بين وحدات النسق من ناحية، ومن ناحية أخرى تمنح كل منها هويتها الفريدة. بمعنى أن هوية كل منزلة قرابية تتحدد بحكم ما تحمله من سمات تربطها مع بقية المنازل في النسق وفي نفس الوقت تميزها عنها. ولكل نسق سماته التمايزية التي قد لا توجد في غيره من الأنساق، ولو وجدت قد لا تؤدي نفس الوظيفة ولا تكون لها نفس القيمة. لذا فإن طرق تصنيف الأقارب، مثلها مثل اللغة، إجراءات تواضعية مما يعني أن الثقافات تختلف في السبل التي تنتهجها في هذا الشأن. فهناك سمات قد لا تنتبه لها هذه الثقافة وتوظفها كسمة تمايزية بينما تهتم بها ثقافة أخرى. المشكلة التي تواجهنا مثلا في ترجمة كلمة انجليزية مثل uncle أو aunt أو cousin لا تكمن في الاختلاف بين مفردات اللغتين العربية والإنجليزية بقدر ما تكمن في الاختلاف بين الشعوب العربية والشعوب الأنجلوسكسونية في السمات التي توظفها في تحديد النسب وتصنيف الأقارب في منازل. ولنأخذ مثالا آخر هو مفهوم كلمة "أخ" أو "أخت" في اللغتين العربية والإنجليزية والذي لا يختلف باختلاف جنس المتكلم أو سنه عن الشخص المشار إليه. أما في اللغة التركية فإن المتكلم يستخدم مصطلحين مختلفين تبعا لما إذا كان الأخ المشار إليه أكبر من المتكلم أو أصغر منه. كما نجد في اللغة الجاوية أن الكلمة المستخدمة للإشارة إلى "أخ" أو إلى "أخت" تختلف تبعا لما إذا كان المتكلم ذكرا أو أنثى، أي تبعا لما إذا كان شخص المتكلم وشخص المشار إليه من جنس واحد أو من جنسين مختلفين. هذا يعني أن الأخ يطلق على أخيه كلمة

غير تلك التي تطلقها الأخت على أخيها وأن الأخت تطلق على أختها كلمة غير تلك التي يطلقها الأخ على أخته. ومن هنا نرى كيف أن الاختلاف بين الشعوب العربية والتركية والجاوية والإنجليزية لا يقتصر فقط على الكلمات التي يطلقونها على الأقارب بل يتعدى ذلك إلى طريقتهم في تجزئة خانات القرابة وتصنيفها في منازل قرابية. هذه السمات البنيوية التي يتميز بها النسق القرابي هي التي شجعت الأنثروبولوجيين منذ وقت مبكر على دراسة الأنساق القرابية في مختلف المجتمعات، فهي مثلها مثل اللغة تشكل مجالا واضح المعالم يسهل، كإجراء عملي ومنهجي، فصله عن غيره من الأنساق وتفحّصه ودراسته على حدة، كما أنه قابل للتحليل البنيوي.

لا يمكن حصر المصطلحات التي تستخدمها المجتمعات البشرية للإشارة إلى علاقات القربى، والتي تختلف باختلاف اللغات. لكن المنازل القرابية والسمات التي تمايز هذه المنازل محدودة. ويمكن إجمال أهمها فيما يلي (Kroeber 1909: 77-84):

١/ الفرق بين قرابة الدم وقرابة المصاهرة (كأن نفرق بين الأخت وزوجة الأخ)،

٢/ الفرق بين القرابة العمودية والقرابة الكتفية (كأن نفرق بين الأم والخالة أو بين الأب والعم أو بين الابن وابن الأخ؛ انظر أدناه حول مصطلح العلاقة الكتفية)،

٣/ الفرق بين الأجيال الصاعدة والأجيال النازلة (كأن نفرق بين الأب والابن أو بين الأم والبنت)،

٤/ الفرق في العمر بين المتكلم وبين القريب إذا كانا من نفس الجيل (كأن يشار إلى الأخ الأكبر بكلمة غير تلك التي يشار بها إلى الأخ الأصغر)،

٥/ الفرق في الجنس بين المتكلم وبين القريب (كأن يشير الأخ لأخيه بكلمة غير تلك التي تشير بها الأخت لأخيها وتشير الأخت لأختها بكلمة غير تلك التي يشير بها الأخ لأخته).

٦/ جنس القريب المشار إليه (كأن نفرق بين الخال والخالة أو الأخ والأخت)،

٧/ جنس القريب المعترض بين المتكلم وبين القريب المشار إليه، كأن نشير إلى أخي الأم (وهي أنثى) بكلمة خال، بينما نشير إلى أخي الأب (وهو ذكر) بكلمة عم، أي التمييز أو عدم التمييز بين الخؤولة والعمومة bifurcation.

٨/ ما إذا كان القريب المشار إليها حيا أو ميتا.

ولا توظف المجتمعات كل هذه السمات بنفس الطريقة وقد لا توظفها جميعا وهناك حالات تُحَيّد فيها بعض السمات ولا تُفَعّل بحيث يستخدم المصطلح ذاته لنوعين أو أكثر من الأقارب، أي أن المتكلم يدمج هؤلاء الأقارب على اختلاف خاناتهم ويضعهم في منزلة واحدة من منازل القرابة ويطلق عليهم نفس المسمى. فالمجتمعات العربية مثلا لا توظف السمات ٤، ٥، ٨ أعلاه. كما أن السمات لا تُوظف دائما بطريقة متسقة في نفس النسق. خذ مثلا سمة جنس القريب المعترض بين المتكلم وبين القريب المشار إليه، فبينما نوظف هذه السمة للتفريق بين أخي الأم وأخي الأب فنسمي الأول خال والثاني عم فإننا لا نوظفها في التفريق بين أبي الأم وأبي الأب ونسميهما كليهما جد. كما يستخدم المتكلم الإنجليزي نفس المصطلح uncle للإشارة إلى عمه وخاله أو aunt للإشارة إلى عمته وخالته أو cousin إلى أبناء وبنات عمه وعمته وخاله وخالته. كما أن قرابة الدم قد تتداخل مع قرابة الرحم، كأن نسمي أبا الزوجة عم وأمها خالة، على أساس أن الزوجة يفترض أصلا أن تكون بنت العم. ولو أنك أنت وابن عمك كل منكما تزوج من أخت الآخر فإنكما، إضافة إلى كونكما

إبنا عم، ستصبحان كلا منكما أخو زوجة الآخر وزوج أخته. وهذا يوضح لنا أنه يمكن لشخصين أن يرتبطا بعلاقات قرابية متعددة ومتنوعة، كل منها له ما يختص به من الحقوق والواجبات والالتزامات. وتختلف المنازل القرابية التي يحتلها الشخص الواحد بالنسبة لمختلف الأقارب تبعا لاختلاف المتكلمين الذين يشيرون إليه ويتحدثون عنه، فخال زيد قد يكون في نفس الوقت عم عبيد وأبو محمد وأخو سالم وابن ربيعة، وهكذا. لذا فإننا حينما نرسم مخططا لأي نسق قرابي لا بد من تثبيت مرجعية المصطلحات وتوجيهها نحو شخص محدد في المخطط يمثل مرتكزا تنطلق منه وتعود إليه جميع العلاقات القرابية، وهو ما يسمى "المتكلم" أو "الأنا ego"، بينما يسمى الشخص الذي نريد تتبع العلاقة بينه وبين المتكلم "القريب الآخر alter-ego".

وعادة ما يلجأ الأنثروبولوجيون للإشارة إلى خانات القرابة المختلفة على مشجرات النسب وتحديد علاقات القربى مستخدمين رموزا تعارَفوا عليها هي:

مثلث صغير يرمز لجنس الذكر △

دائرة صغيرة ترمز لجنس الأنثى ○

مربع صغير في حال عدم التفريق بين الجنسين □

علاقة الزواج يشار لها إما بعلامة = أو علامة ⎿⎯⎯⎯⏌

خط رأسي يرمز لعلاقة الأبناء بالآباء |

خط أفقي يرمز لعلاقة الأخوة ⎯⎯⎯

القريب المتوفى يشار إليه بوضع علامة على رمزه، هكذا ⧋⧊⧌

في حالة الأنا/المتكلم يلوّن الفراغ داخل المثلث أو الدائرة باللون الأسود ▲ ●

وفي الجدول التالي نقدم جردا بالحد الأدنى والضروري لمصطلحات جميع الخانات والمنازل القرابية لعائلة ممتدة تتألف من خمسة أجيال هم الأجداد والآباء والأبناء والأحفاد إضافة إلى جيل الأنا/المتكلم، مكتفين بأنثى واحدة وذكر واحد في كل منزلة من منازل القرابة وكل خانة من خاناتها. ويتألف الجدول من خمسة أعمدة الأيمن منها يتضمن منازل القرابة باللغة العربية يليه إلى اليسار ترجماتها بالإنجليزية ثم مصطلحات الخانات القرابية بالعربية وترجماتها الإنجليزية ويتضمن العمود إلى أقصى اليسار المختصرات المتعارف عليها للخانات القرابية باللغة الإنجليزية.

ونظرا لاختلاف المجتمعات في تصنيف الخانات القرابية في منازل قرابية فإن الأنثروبولوجيون عادة ما يستخدمون الخانات القرابية ورموزها على مشجرات النسب لأنها أكثر حيادية من منازل القرابة ولا تختلف من مجتمع لآخر، كما قلنا. لاحظ مثلا أنك أنت تفرق اصطلاحيا بين عمك وخالك بينما يدمجهما الشخص الإنجليزي في مصطلح واحد لكنكما كلاكما تعرفان أن كلا منهما يحتل خانة قرابية محددة ومتميزة تختلف عن الأخرى، بمعنى أن أحدهما أخو الأب والآخر أخو الأم. ولكي تحدد المنزلة القرابية لأي من أقربائك فإنك تكتفي بالمصطلح القرابي كأن تقول عن فلان من الناس إنه ولد خالة أبيك أو ولد أخت جدتك ولكن لو أردت أن تحدد خانته القرابية بشكل دقيق وواضح لا لبس فيه فإنك تتعقب الأقرباء المعترضين الذين يفصلون بينك وبينه وتعدهم بالتسلسل واحدا بعد الآخر، أو كما يقولون بالإنجليزية reckoning، وبذلك تحدد درجة قرابته وبعده أو قربه منك، كأن تقول عنه إنه ابن اخت أم أبي. ونظرا للاختلاف في البنية النحوية بين اللغتين العربية والإنجليزية (العربية تقدم الموصوف على الصفة والمضاف إليه على المضاف بينما الإنجليزية تقدم

مختصرات الخانات	مصطلحات خانات القرابة		مصطلحات منازل القرابة	
	بالإنجليزية	بالعربية	بالإنجليزية	بالعربية
FF	Father's Father	أبو الأب	Grandfather	جد
FM	Father's Mother	أم الأب	Grandmother	جدة
MF	Mother's Father	أبو الأم	Grandfather	جد
MM	Mother's Mother	أم الأم	Grandmother	جدة
FZ	Father's Sister	أخت الأب	Aunt	عمة
FB	Father's Brother	أخو الأب	Uncle	عم
F	Father	أب	Father	أب
M	Mather	أم	Mother	أم
MZ	Mother's Sister	أخت الأم	Aunt	خالة
MB	Mother's Brother	اخو الأم	Uncle	خال
FZD	Father's Sister's Daughter	بنت أخت الأب	Cousin	بنت العمة
FZS	Father's Sister's Son	ابن أخت الأب	Cousin	ابن العمة
FBD	Father's Brother's Daughter	بنت أخو الأب	Cousin	بنت العم
FBS	Father's Brother's Son	ابن أخو الأب	Cousin	ابن العم
Z	Sister	أخت	Sister	أخت
Ego	Ego	أنا	Ego	الأنا/المتكلم
B	Brother	أخ	Brother	أخ
MZD	Mother's Sister's Daughter	بنت أخت الأم	Cousin	بنت الخالة
MZS	Mother's Sister's Son	ابن أخت الأم	Cousin	ابن الخالة
MBD	Mother's Brother's Daughter	بنت أخو الأم	Cousin	بنت الخال
MBS	Mother's Brother's Son	ابن أخو الأم	Cousin	ابن الخال
ZD	Sister's Daughter	بنت الأخت	Niece	بنت الأخت
ZS	Sister's Son	ابن الأخت	Nephew	ابن الأخت
D	Daughter	بنت	Daughter	بنت
S	Son	ابن	Son	ابن
BD	Brother's Daughter	بنت الأخ	Niece	بنت الأخ
BS	Brother's Son	ابن الأخ	Nephew	ابن الأخ
DS	Daughter's Son	ابن البنت	Grandson	حفيد
DD	Daughter's Daughter	بنت البنت	Granddaughter	حفيدة
SS	Son's Son	ابن الإبن	Grandson	حفيد
SD	Son's Daughter	بنت الإبن	Granddaughter	حفيدة
H	Husband	زوج	Husband	زوج
W	Wife	زوجة	Wife	زوجة

الصفة على الموصوف والمضاف إليه على المضاف) فإن عد الأقارب المعترضين بين الأنا ego وبين القريب الآخر alter ego يكون ترتيبهم على عكس ما هو بالعربية حيث يبدأ العد من القريب الموالي للأنا فتقول في المثال السابق my father's mother's sister's son، وعادة ما تختصر هذه العبارة هكذا FMZS. وحتى لا تزدحم مشجرات النسب لو استخدمنا المصطلحات بصيغتها الكاملة فإننا غالبا ما نلجأ إلى استخدام مثل هذه الاختصارات، وسوف نستخدم في مخططات النسب المختصرات الانجليزية التي تحتل العمود الأقصى إلى اليسار في الجدول السابق نظرا لوضوحها وسهولة التعامل معها. وبإمكاننا أن نحول الجدول السابق إلى شبكة قرابية أو مشجر نسب مستخدمين الرموز المتعارف عليها كما يلي:

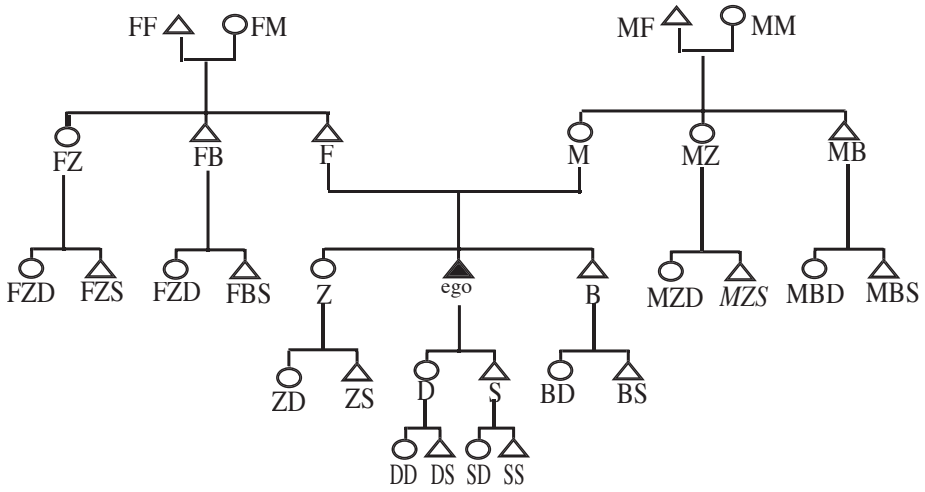

وكما يتضح من العمود الثاني في الجدول السابق فإن اللغة الإنجليزية تستخدم مصطلحا واحدا هو uncle للإشارة إلى العم والخال معا ومصطلحا واحدا هو aunt للإشارة إلى العمة والخالة معا ولا تفرق بين أبناء وبنات العم والعمة وأبناء وبنات الخال والخالة. لذا فإن الأنثروبولوجيين الإنجليز من أجل التمييز بين هذه الخانات القرابية يطلقون على العم مصطلح parallel uncle (PU) لأنه يوازي، أي يماثل الأب في الجنس، ويطلقون على الخالة مصطلح parllel aunt (PA) لأنها توازي، أي تتماثل مع الأم في الجنس. أما العمة فإنهم بحكم اختلافها في الجنس عن الأب يطلقون عليها مصطلح cross aunt (CA)، مثلما يطلقون على الخال بحكم اختلافه في الجنس عن الأم مصطلح cross uncle (CU). وبناء عليه أطلقوا على ابن أو بنت العم وكذلك ابن أو بنت الخالة مصطلح parallel cousin (PC)، وعلى ابن أو بنت العمة وكذلك ابن أو بنت الخال cross cousin (CC). أي أن مصطلح parallel cousin يشير إلى قريب يعترض بينه وبين المتكلم أخوة من نفس الجنس، ويشمل ذلك أبناء وبنات الإخوين وكذلك أبناء وبنات الأختين، بينما يشير مصطلح cross cousin إلى قريب يعترض بينه وبين المتكلم أخوة من جنس مختلف، ويشمل ذلك أبناء وبنات الأخ وأخته. وزيادة في التحديد يطلق المتكلم على ابن أو بنت عمه مصطلح patrilateral parallel cousin (PPC) وعلى ابن أو بنت خالته matrilateral parallel cousin (MPC) وعلى ابن أو بنت عمته patrilateral cross cousin (PCC) وعلى ابن أو بنت خالته matrilateral

cross cousin (MCC). ويلاحظ في هذه المصطلحات الأربع الأخيرة المختصة بأبناء وبنات العمومة والخؤولة أنها تشير إلى جنس القريبين المعترضين لكنها لا تشير إلى جنس القريب نفسه ما إن كان ذكرا أو أنثى. ويعود عدم التفريق في اللغة الإنجليزية بين الذكور والإناث في هذه المنزلة القرابية إلى أن قواعد اللغة الإنجليزية أصلا لا تفرق، خلافا لما هو عليه الحال في العربية، بين المذكر والمؤنث، لكننا نجد هذا التفريق في اللغات الرومانية التي تفرق بين الذكر والأنثى كالفرق بين cousin و cousine في الفرنسية وبين primo و prima في الأسبانية. ويمكننا توضيح علاقات العمومة والخؤولة وأبنائهم على هذا الشكل:

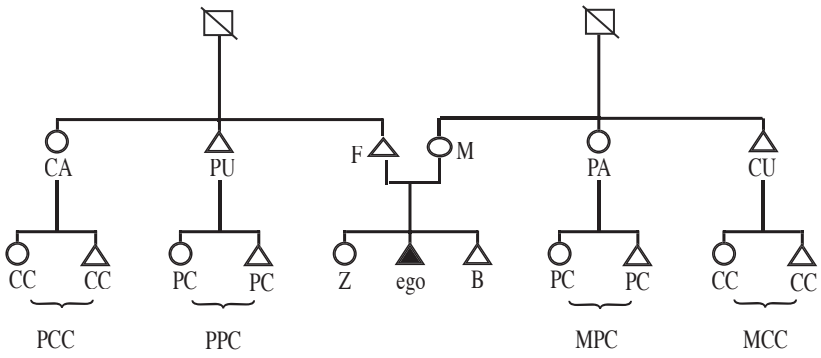

ويولي الأنثروبولوجيون أهمية خاصة للمصطلحات المستخدمة للإشارة إلى العم والعمة والخال والخالة وعلى أبنائهم وبناتهم حيث أنها، كما سنرى فيما بعد، تلعب دورا هاما في تحديد المصطلحات القرابية التي تعكس طبيعة أنماط القرابة ونظم الزواج عند مختلف المجتمعات التقليدية والبدائية. كما يهتم الأنثروبولوجيون بما إذا كان التزاوج يتم بين ذراري الإخوة أو بين ذراري الأخوات من ناحية، وهو ما يسمى parallel cousin marriage، أو بين ذراري الإخوة مع ذراري الأخوات من ناحية أخرى، وهو ما يسمى cross cousin marriage. فبينما تفضل بعض المجتمعات، دون أن تشترط أو تُلزم، الزواج من فئة محددة من الأقارب، وهذا ما يسمى الزواج الاختياري (المفضل) preferential marriage، هناك مجتمعات تشترط الزواج من فئة محددة من الأقارب دون غيرها، وهذا ما يسمى الزواج المشروط (المقيّد) prescriptive marriage، كأن تشترط زواج الرجل من بنت خالته matrilateral parallel cousin أو بنت عمه patrilateral parallel cousin، وهذا يتوافق مع اشتراط الزواج الداخلي endogamous marriage، أي الزواج من داخل العشيرة. أما في المجتمعات التي تشترط الزواج الخارجي exogamous marriage، أي الزواج من خارج العشيرة، فإن ذلك يتم إما بزواج الرجل من بنت خاله matrilateral cross cousin، أو بعبارة أخرى زواج البنت من ابن عمتها patrilateral cross cousin، أو بزواج الرجل من بنت عمته patrilateral cross cousin، أو بعبارة أخرى زواج البنت من ابن خالها matrilateral cross cousin، وسنرى كيف يتم ذلك في الصفحات والفصول التالية.

الزواج والسكن

التزاوج ضروري لعملية الإنجاب وتكاثر الجنس ولاستمرار أي نوع من أنواع الحياة الحيوانية. لا بد

لكل مولود، خاصة من فصيلة الثديات، من ذكر يواقع أنثى ليلقحها لتنجب المولود. هذه هي الأمومة والأبوة بمفهومها البيولوجي البحت المتوقف فقط على الإنجاب عن طريق الاتصال الجنسي والتي تختلف تماما عن الأمومة والأبوة بمفهومها الثقافي والاجتماعي. فلو أننا، على سبيل المثال، أخذنا الرئيسيات، التي هي أقرب الكائنات للإنسان، لما وجدنا من بينها من يعرف أقربائه ويميّز بينهم كما يعرف الإنسان أقاربه ويميز بينهم، ولما وجدنا من بينها من يوظف علاقات القربى كوسيلة لتنظيم العلاقات الاجتماعية. المواقعة الجنسية وما يترتب عليها من حمل وولادة ورضاعة حقائق بيولوجية صرفة، لكن هذا لا يعدو أن يكون المادة التي يغزل منها المجتمع خيوط الأنساب وينسج شبكة العلاقات القرابية. وتختلف المجتمعات في التعامل مع العلاقات البيولوجية وتوظيفها لتشكل منها العلاقات القرابية ومحددات النسب. هذا يعود إلى قدرة الثقافة البشرية على تحويل الحقائق البيولوجية إلى حقائق سوسيولوجية. لذا فإن ما يهمنا في دراستنا للأنساب هو كيفية توظيف الثقافة لحقائق البيولوجيا وما تضفيه عليها من رمزية وقيم اجتماعية. فأنت بحكم المولد يمكن لك أن تتتبّع صلاتك البيولوجية/الجينية لعدد لا يحصى من البشر ولكن مَن مِن هؤلاء تعتبرهم في عداد الأقارب! هنا تأتي أهمية وجود المعايير الاجتماعية والمعطيات الثقافية التي نحتكم إليها كي نصنف البشر إلى أقرباء وإلى غرباء والتي تختلف من مجتمع لآخر. علينا أن نفرق بين علاقة الوالد بالمولود كعلاقة بيولوجية أساسها العلاقة الجنسية والإخصاب، والتي لا يختلف فيها الإنسان عن الحيوان، وعلاقة الأب بابنه كعلاقة اجتماعية أساسها شرعي وقانوني. الجماع حقيقة بيولوجية يشترك فيها الإنسان والحيوان، أما الزواج فهو شأن إنساني بحت، إنه حقيقة ثقافية وعلاقة اجتماعية لذا فهو يخضع لقوانين وطقوس ويتخذ أشكالا تعاقدية تختلف باختلاف الثقافات والمجتمعات البشرية لكنه ضروري لإضفاء الشرعية والقبول على العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى وتحليلها من ناحية ولمنح الشرعية للأطفال الذين يولدون من هذه العلاقة من ناحية أخرى. اللقيط الذي يخرج إلى هذا العالم خارج إطار علاقة الزواج الشرعية ليس له هوية ولا انتماء وليس له نسب. الزواج هو الذي يمنح النسب للمولود والاعتراف به كمولود شرعي لأمه وأبيه. أنساق القرابة والزواج في المجتمع الإنساني تضفي معنى اجتماعيا وثقافيا على ما يترتب على العملية الجنسية من علاقات بيولوجية يتساوى فيها كل البشر وتحيلها إلى علاقات اجتماعية تختلف من مجتمع لآخر. لذا فإن مفهوم النسب عند الأنثروبولوجيين لا يقصد به العلاقة البيولوجية وإنما العلاقة الاجتماعية بما يكتنفها من أعراف وممارسات تحدد الأسس الشرعية التي يقوم عليها النسب وانتماء الفرد إلى جماعة دون أخرى (Barnes 1961).

العلاقات القرابية مبنية على العلاقات التناسلية (الجينيولوجية) ولكنها ليست هي هي. لذا يُطلق على الأمومة بمفهومها البيولوجي مصطلح genetrix (لنقل والدة) بينما يُطلق عليها بمفهومها الاجتماعي مصطلح mater (لنقل أم)؛ كذلك يُطلق على الأبوة بمفهومها البيولوجي genitor (لنقل والد) بينما يُطلق عليها بمفهومها الاجتماعي pater (لنقل أب). هذه التفرقة ضرورية لأن هناك حالات قد لا يكون فيها الأب أو الأم هو الوالد الحقيقي، كما في حالات التبني مثلا أو الأم من الرضاع أو كما في نكاح الاستبضاع في الجاهلية أو كما في القول المأثور: الولد للفراش. ومن الأمثلة التي يمكن إيرادها في هذا الخصوص أن القانون البريطاني لا يعتبر الرجل الذي عاشر امرأة خارج العلاقة الزوجية وحملت منه أبا لولدها ولا قريبا له حتى لو تزوجها وهي حامل به ما لم يصدر مرسوم يصادق عليه البرلمان يلحق الولد بالوالد، أما في أسكتلندا فإن مجرد زواج الرجل بالمرأة بعد الحمل أو الولادة يكفي لإلحاق الولد بالوالد. وفي الآونة الأخيرة جاءنا التقدم العلمي

والتقني بأطفال الأنابيب وتأجير الأرحام. وهناك حالات كثيرة من حالات الزواج يتم فيها التزاوج والإنجاب بطرق يكون الأب الاجتماعي غير الوالد البيولوجي من أكثرها غرابة أن المرأة الثرية العاقر عند شعب الداهومي في أفريقيا قد تدفع الجهاز وتتزوج من عدة نساء وتتيح لبعض الرجال مضاجعتهنّ لينجبن لها أطفالا تكون هي "أبوهم" الاجتماعي (Bohannan 1963: 83). وعند قبائل النوير Nuer في السودان إذا توفي الرجل ورث أخوه أرملته لكن ما تنجبه من أطفال يعتبرون أبناء للأخ المتوفى وليس لمن واقَع المرأة (Evans-Pritchard 1951: 108ff)، وهذا ما يسمى عندهم الزواج الشبح ghost marriage. ونجد نفس الممارسات عند قبائل الزولو Zulu الأفريقية (Radcliffe-Brown *et al* 1967: 64). وعند قبائل النايار Nayar في منطقة مَلَبار Malabar الساحلية جنوب الهند قد يشترك عدد من الرجال في زوجة واحدة يواقعونها جنسيا. هؤلاء الرجال لا تربطهم أي علاقة أحدهم بالآخر ومن يريد منهم أن يكون أبا للجنين الذي تحمله الأم في رحمها عليه أن يؤدي طقوسا معينة قبيل الولادة تتمثل في منح الأم لعبة على شكل قوس صغير. أما عند جماعات التبت Tibet في جبال الهملايا فإن الإخوة يشتركون في زوجة واحدة، وهذا ما يسمى adelphic polyandry، لكن الأخ الأكبر هو من تؤول إليه أبوة الأولاد (Berreman 1975; Gough 1959; Panikkar 1918).

ونتحدث عن أشكال الزواج بشيء من التفصيل لاحقا لكن قصدنا من إيراد هذه الأمثلة السريعة هنا فقط هو التفريق بين دور الرجل في مواقعة الأنثى وتخصيبها وبين دوره كأب للمولود تربطه به علاقة الأبوة التي تتخذ صفة قانونية تتمثل في انتساب الابن لأبيه وحق الابن في أن يرث عن الأب ثروته ومركزه الاجتماعي وينتمي من خلال الانتساب له لجماعة معينة.

الشرط الضروري لوجود العائلة والشكل الأدنى لها هو الأم ونتاجها من الأطفال. فلا أحد ينازع الأم هذا الحق وأولويتها في هذا الشأن أولوية طبيعية، إذ لا أحد ينكر الحمل والولادة والرضاعة وطقوس قطع سر المولود الجديد لفصله عن أمه عند الولادة. هذه أمور ماثلة للعيان متلازمة مع دور الأمومة. دور الأنثى كأم يثبته ويؤكده دورها الطبيعي، أما الرجل فإن وجوده ليس أساسي كوجود الأم وشرعية دوره كأب لا تتوقف على ممارسة الجنس مع الأم وإنما على الزواج منها وفق طقوس يقرها المجتمع. أي أن حق الأمومة أساسه طبيعي، أما حق الأبوة فأساسه اجتماعي ويمكن لأي رجل القيام بهذا الدور ورعاية الأم وطفلها حتى لو لم يكن هو من قام بعملية الإخصاب أساسا. هذا يعني أن من يتكفل بحماية الأم وأطفالها ورعايتهم وتربيتهم ليس بالضرورة دائما هو الأب البيولوجي للأطفال، وإنما قد يقوم بذلك أبو الزوجة أو أخوها أو أي ذكر تقترن به وتعيش معه.

الأولاد الذين تنجبهم "زوجة" المرأة العاقر من داهومي أو المرأة من التبت أو من قبائل النايار لا يعتبرون أولاد حرام بل هم أولاد حلال لأنهم يكتسبون شرعيتهم بحكم مراسيم الزواج التي يقرها مجتمعهم مهما بدت لنا غريبة مستنكرة. الزواج وما يترتب عليه من انتساب هو الذي يمنح المولود شرعيته ومكانته الاجتماعية بكل ما يترتب على هذه المكانة من حقوق وواجبات. ومن المعلوم أن مكانة الفرد الاجتماعية ومنزلته في المجتمعات البدائية والتقليدية تورّث ولا تكتسب، كأن يولد الإنسان في هذه القبيلة أو تلك أو يولد خضيريا أو قبيليا في مجتمعات الجزيرة العربية أو أن يولد في طبقة المنبوذين في المجتمع الهندي مثلا. ولادة الفرد لأمه وأبيه هي التي تمنحه الانتماء للجماعة التي ينتسب لها من خلال والديه ويربطه بشبكة من العلائق القرابية مع من يشاركونه في النسب، بما يترتب على ذلك من التزامات متفاوتة مع مختلف أعضاء الجماعة التي ينتمي

لها. هذه المكانة وهذا الانتماء هو ما يمنحه ما له من حقوق وما عليه من واجبات، مثل حقوق الميراث وملكية الأرض والعون عند الحاجة والثأر وممارسة السلطة على الآخرين أو الخضوع لهم، كذلك المناصب الدينية والسياسية والألقاب الشرفية والنشاطات المهنية وما شابهها يتم توارثها عائليا في المجتمعات التقليدية. وهناك آليات متبعة لدعم هذه الحقوق والواجبات المتبادلة تتمثل إما بالعادات والتقاليد المتوارثة أو القيم والمعتقدات الدينية أو حتى الإجراءات القانونية.

وتختلف العلاقات المترتبة على صلة القربى في المجتمعات التقليدية عن تلك المترتبة على التعاقد في المجتمعات الصناعية. ففي الحالة الأخيرة يدخل الطرفان في العقد طواعية وتنتهي العلاقة بينهما بمجرد تنفيذ بنود العقد أو انتهاء مدته أو فسخه. أما العلاقات في الحالة الأولى فإن الفرد لا يدخل فيها مختارا إن كانت مبنية على صلة الدم وتستمر مدى الحياة، ولكن إن كانت مبنية على الزواج والمصاهرة فإنها تنتهي في حالة فسخ عقد الزواج. ومن ضمن هذه الحقوق والواجبات ما يسمى بالحقوق الشخصية *jus in personam* كحقوق أهل الزوجة على زوجها في دفع المهر الذي يستحل به فرجها *jus in uxorem* وحقوقها عليه في النفقة مقابل حقه عليها في خدمته وفي إنجاب الأولاد له، أي في نتاج رحمها من الذرية *jus in genetricem*. وهناك حقوق الملكية أو الولاية ضد الآخرين *jus in rem*. فلو أن شخصا اعتدى على ابن شخص آخر أو اختطف بنته أو زنا بزوجته أو ضرب عبده فإن ذلك تَعَدٍّ على حقوق ولاية الشخص على ما ملكت يمينه، تماما كما لو أن الشخص المعتدي اعتدى على ممتلكات الشخص المعتدَى عليه أو أي شيء يخصه، أي أنه من الناحية الحقوقية يعتبر تعد على الولي أو المالك نفسه بقدر ما هو تعد على المتضرر (Radcliffe-Brown *et al* 1967: 11-2).

نواة العلاقة القرابية تقوم أساسا على التضادية الجنسية بين الذكر والأنثى. تبدأ علاقات القربى باقتران رجل وامرأة بعلاقة شرعية بموجبها يصبحان زوجين ويشكلان نواة لعائلة نووية، أيا كانت طبيعة هذا الزواج والأسس التي تستند عليها شرعيته، فالمجتمعات تختلف اختلافات لا حدود لها في هذا الشأن. هذه العلاقة القرابية لا تقتصر على الزوج والزوجة بل تمتد لتشمل أقاربهما بحيث يرتبط أقارب الزوج وأقارب الزوجة بعلائق الرحم والمصاهرة.

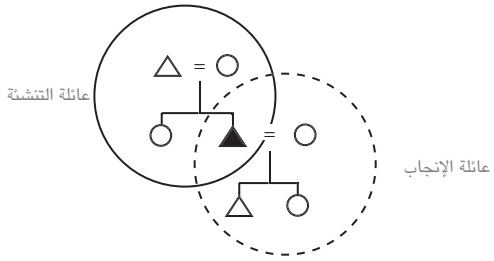

الفرد البالغ في الغالب ينتمي لعائلتين؛ عائلة التنشئة family of orientation التي يتحدد فيها دوره كابن أو بنت وكأخ أو أخت، وعائلة الإنجاب family of procreation أو conjugal family التي يتحدد فيها دوره كزوج أو زوجة وكأب أو أم. بعد أن ينجب الزوج والزوجة أطفالا يصبحان أبا وأما تربطهما بأطفالهما رابطة الدم والتي تربط أيضا الأطفال بعضهم ببعض. من هذه التركيبة الأساسية المؤلفة من أفراد العائلة النووية تنبثق علاقات القربى الأولية بشقيها المتمثلين في علاقات المصاهرة بين الزوجين وعلاقات الدم بشقيها المتمثلين

بعلاقة الأبوّة بين الآباء والأبناء وعلاقات الأخوّة بين الأبناء. وكل فرد داخل العائلة النووية يحتل موقعين قرابيين، فهو إما زوج/أب، أو زوجة/أم، أو ابن/أخ أو بنت/أخت. وتتشكل من هذه المواقع القرابية ثنائيات تبادلية dyads كل طرف فيها لا وجود له إلا بوجود الطرف الآخر. هذه الثنائيات هي: زوج/زوجة، آب/ ابن. أب/بنت، أم/بنت، أم/ ابن، أخ/أخت، أخ/أخ، أخت/أخت. من هذه العلاقات الأولية المبنية على علاقة الارتباط الزوجي بين الأبوين أحدهما مع الآخر وعلى علاقة الأبوة مع الأبناء وعلى علاقة الأخوّة بين الأبناء بعضهم ببعض يقوم الأساس الذي تنبثق منه علاقات أخرى ثانوية تبدأ بعلاقة هذه العائلة النووية مع أهل الزوج الذي يعد قريبا مشتركا بين العائلتين ومع أهل الزوجة التي تعد أيضا قريبا مشتركا بين العائلتين، إضافة إلى ما يقوم من علاقات أخرى من خلال الزوجين بين أهل الزوج وأهل الزوجة (Radcliffe-Brown *et al* 1967: 11-2). فعلاقة النسب أو المصاهرة التي تربطك مع شخص آخر لا بد أن تمر إما عبر زوجك أو عبر أحد أبويك أو أحد أبنائك أو أحد إخوانك. والعلاقة التي تربطك بزوجك أو بأحد أبويك أو أحد إخوانك تسمى علاقات أولية أو علاقات الدرجة الأولى. العلاقات الأولية تربط مباشرة بين شخصين دون أن يعترض بينهما قريب آخر، أما العلاقات الثانوية فهي تلك التي تربطك مع جدك أو حفيدك أو عمتك أو بنت أخيك أو أخو زوجتك، أي أن يعترض بينك وبين الآخر شخص واحد يمثل همزة الوصل بينكما، كأن يعترض ابنك بينك وبين ابنته التي هي حفيدتك أو أن تعترض أمك بينك وبين أخيها الذي هو خالك. وإن اعترض شخصان كانت العلاقة من الدرجة الثالثة كتلك التي تربطك مع ابن عمك والتي يعترض فيها بينكما أبوك وعمك، وهكذا هي الحال مع بقية الأقارب من الدرجة الرابعة والخامسة، الخ. وكلما زدنا درجة من درجات القربى كلما تضاعف عدد الأقارب والذي قد يصل إلى المئات والآلاف بعد الدرجة العاشرة. وهكذا تشكل هذه العلاقات الثانوية في مجموعها شبكة من العلاقات الثانوية الأخرى المترابطة التي تتداخل وتمتد وتتغلغل بشكل أو باخر حتى تكاد تشمل المجتمع بكامل أفراده وتشكل الأساس الذي يقوم عليه البناء الاجتماعي برمته (Radcliffe-Brown 1952: 2). فالعائلة النووية النموذجية مؤهلة أن تربط على الأقل بين أربع عوائل أخرى هي أهل الأب وأهل الأم وأهل زوجة الابن وأهل زوج البنت. هذه الوشائج القرابية بين العوائل النووية ينتج عنها شبكة متداخلة ومتقاطعة من العلاقات الجينيولوجية التي تتعنقد مثلما تتعنقد أغصان الشجرة التي تتفرع من العجرات.

تختلف أنماط الزواج باختلاف المجتمعات. فهناك الزواج الأحادي monogamous الذي لا يسمح بالجمع بين أكثر من قرين. وهناك الزواج التعددي polygamous. والزواج التعددي إما أن يعني تعدد الأزواج polyandry وإما أن يعني تعدد الزوجات polygyny، وهو الأكثر شيوعا (Leach 1955). وهناك مجتمعات تتيح للزوج أن يتزوج من أخت زوجته، خصوصا إذا كانت الزوجة عاقرا أو ماتت ولم تنجب، ويسمى هذا النوع من الزواج sororate، ومن الأمثلة على ذلك عند العبرانيين زواج يعقوب بن إسحق من راحيل Rachel واختها ليئه Leah ابنتي خاله لابان Laban. وهناك مجتمعات تتيح للرجل أن يقترن بأرملة أخيه الأكبر إذا مات، أو ربما وهو ما يزال على قيد الحياة، على شرط أن يكون الأبناء للأكبر (Sapir 1916)، ويسمى هذا النوع من الزواج levirate، وكان منتشرا عند هنود الشوشوني في أمريكا الشمالية (Fox 1971: 119)، كما كان يمارسه العبرانيون القدماء كما جاء في سفر اللاويين Leviticus من أسفار العهد القديم، وكذلك عند العرب ويسمونه زواج المقت. هذا النوع من الزواج يشير إلى أن أهل الزوج حينما دفعوا المهر لأهل الزوجة فإنهم بذلك استحلوا فرجها ونتاج رحمها مدى الحياة ولو ماتت وزوجها ما زال على قيد الحياة أو ماتت دون أن

تنجب له أطفالا فإنهم ملزمون بتعويضه بزوجة أخرى. وهناك مجتمعات مثل مجتمعات الأسكيمو وبعض قبائل أستراليا الأصليين تسمح بإعارة الزوجة للضيف أو الصديق كجزء من الضيافة أثناء فترة إقامته مع مضيفه وقد يتبادل الأزواج زوجاتهم.

أما تعدد الأزواج فهو نادر الحدوث ولا يكاد يعرف إلا عند هنود الشوشوني Shoshone في صحراء نيفادا Nevada ويوتا Utah في أمريكا الشمالية (Fox 1971: 86-7) وكذلك في جزر الماركيزاس Marquesas في بولينيزيا Polynesia وبين قبائل النايار في منطقة مَلَبار وفي مناطق التبت (Bohannan 1963: 111-2; Leach 1955; Murphy 1979: 67-8, 71, 90). هؤلاء الأقوام يعيشون في بيئات قاحلة وفقيرة لذا فهم يمارسون تعدد الأزواج كشكل من أشكال تحديد النسل لأن المرأة مهما كان عدد الرجال الذين يضاجعونها فإنها لا تستطيع أن تنجب أكثر مما تستطيعه لو انفرد بها زوج واحد، على خلاف الرجل الذي بإمكانه تلقيح عدد لا يحصى من الإناث وينجبن منه عددا لا يحصى من الذرية. لكن المرأة من ناحية أخرى أقدر من الرجل على إشباع الرغبة الجنسية لعدد أكبر من أفراد الجنس الآخر. وعادة ما يرتبط هذا النوع من الزواج بممارسة وأد البنات، بما يترتب على ذلك من ندرة في النساء، لأن دور العنصر النسائي في العملية الإنتاجية محدود في ظل قسوة البيئة وشح مواردها وندرة الأراضي الصالحة للزراعة بحيث لا تنتج ما يكفي لإعالة عدد كبير من الأشخاص كما لا تسمح للرجل أن يجمع ما يكفي من الثروة لدفع مهر للزوجة. في هذه الحالة لا يمانع الأخ الأكبر أن يشارك إخوته الأصغر في زوجته على أن يظلوا بجانبه كقوة عاملة يشاطرونه شظف العيش ويساعدونه على تحمل أعباء الحياة.

ومثلما تختلف أنماط الزواج من مجتمع لآخر كذلك تختلف أماكن العيش والسكنى عند الزواج، كأن يعيش الزوجان في مسكن مستقل neolocal، أو يبقى الزوج والزوجة كل في مكانه ولا يلتقيان إلا لماما duolocal، أو يسكنان فترة مع عشيرة الزوج وفترة مع عشيرة الزوجة ambilocal، أو أن تترك لهما حرية الاختيار bilocal ليسكنا عند الأقارب الأكثر حاجة للأيدي العاملة أو الأكثر وفرة في الموارد أو من لديهم فائض من الأراضي الزراعية، أو تنتقل الزوجة إلى بيت الزوج virilocal/patrilocal في المجتمعات التي تتبع النسب من خط الأب، أو ينتقل الزوج إلى بيت الزوجة uxorilocal/matrilocal في المجتمعات التي تتبع النسب من خط الأم، وقد ينتقل الزوج مع زوجته إلى حيثما يسكن خاله avunculocal لأن ميراثه من الأرض سوف يَدْرُج عليه من جهة خاله، لا من جهة أبيه الذي بدوره سيورّث أرضه لابن أخته. ويسود هذا النمط الأخير عند القبائل التي تتبع النسب من خط الأمومة مثل سكان جزر التروبْرِيانْد Trobrian Islands في ميلانيزيا Melanesia وقبائل الأَشانْتِي Ashanti في غابات غانا الأفريقية (Hammond 1971a: 164-5).

وشكل الزواج يحدد قيمة المهر المدفوع الذي به يستحل الزوج فرج الزوجة ونتاج رحمها وخدماتها كقوة عاملة. ففي حال بقاء الزوجة عند أهلها وعدم انتقالها إلى بيت زوجها لا يدفع الزوج مهرا يذكر لأنه لن يستفيد من الزوجة كقوة عاملة، كما أن ولاية أولادها والوصاية عليهم تعود لعشيرتها هي وليس لعشيرة الزوج. أما في حال دفع المهر وانتقال الزوجة إلى بيت الزوج فإن على أهلها أن يعوضوه إن تبين أنها عاقر أو توفيت أو طلقها قبل أن تلد له أولادا. وقد يتمثل هذا التعويض في توفير زوجة بديلة. وقد يتم تقديم المهر على دفعات تمتد لفترة طويلة للتأكد من قدرة الزوجة على الإنجاب، عندها لا يكتمل انتساب الأبناء رسميا إلى عشيرة الأب حتى يستكمل دفع المتبقي عليه من المهر ولو لم يدفع فإن انتساب الأبناء يتحول إلى عشيرة الأم.

نمط الزواج ومكان السكنى كلها أمور تترابط وظيفيا مع بعضها البعض ومع المحيط الإيكولوجي والمستوى التكنولوجي الذي يوظفه الإنسان لاستغلال بيئته، وهذا بالتالي يُحدد طرق الحصول على العيش واستغلال الموارد التي تقوم عليها حياة الجماعة وما يتطلبه ذلك من نشاطات جماعية وتعاون وعمل مشترك. نجد مثلا أن الزواج الأحادي والنسب الثنائي والسكن المستقل ينتشر في المجتمعات الصناعية الرأسمالية المتطورة التي تضطلع فيها مؤسسات الدولة بمعظم الوظائف والمهام الموكلة للعائلة أو العشيرة في المجتمعات التقليدية مثل الدفاع والتعليم والصحة. في المجتمعات الصناعية لا تشكل الأسرة وحدة الإنتاج والتوزيع والاستهلاك حيث يقوم نظام السوق market بهذه المهام، كما تتم مزاولة النشاطات الاقتصادية خارج إطار الأسرة مما يشجع على الاستقلالية الفردية والاستقلالية المالية وعلى الحراك الاجتماعي والجغرافي ليبقى الأفراد الذين يشكلون قوة العمل قادرين على الانتقال حيثما تتوفر لهم الفرص الوظيفية. نظرا لانحسار دور علاقات القربى في المجتمعات الصناعية نجدها تنحصر في نطاق ضيق وتكاد تقتصر فقط على الأهل وأفراد العائلة الأدنين. وكلما ضعف دور العلاقات القرابية كآلية لتشكيل الجماعات حلت محلها علاقات الصداقة والعلاقات المهنية والتعاقدية وأصبحت الانتماءات الطبقية والحزبية والاهتمامات والمصالح المشتركة تعلو على النسب العائلي (Kirchhoff 1955; Sahlins 1972: 225).

كذلك ينتشر الزواج الأحادي والسكن المستقل في البيئات الفقيرة التي لا تسمح مواردها الشحيحة بإعاشة أعداد كبيرة من الناس، كما هو الحال بالنسبة لقبائل الأسكيمو في سيبريا وقبائل هنود الشوشوني. تقوم حياة هذه الجماعات على الجمع والالتقاط وصيد الأسماك وغيرها من عمليات الإنتاج التي لا تحتاج إلى التكاتف والتعاون، ونظرا لأن مواردها الشحيحة ليس فيها مطمع فهي لا تمارس الغزو والغارات على بعضها البعض ولا تحتاج إلى جموع من الرجال لشن الغارات أو صد العدوان. وحيث أن الموارد المحدودة لهؤلاء الأقوام تفرض عليهم التنقل الدائم ولا تسمح لهم بالاستقرار وتشكيل جماعات كبيرة فهم لا يولون الأنساب اهتماما كبيرا، كما أنهم لا يتبنون شكلا محددا فيما يتعلق بالسكن بعد الزواج لأنهم يريدون الاحتفاظ بقدر من الحرية للانتقال حيثما تتوفر مصادر الغذاء مع تقلبات الفصول والمواسم، إما عند أهل الزوج أو عند أهل الزوجة أو على انفراد (Fox 1971: 86-7; Pasternak *et al* 1997: 262).

هذا بينما نجد انتقال الزوجة إلى بيت الزوج ينتشر في المجتمعات الرعوية ومجتمعات القنص والصيد التي تتبع النسب الأبوي لأن حياة الرعي وكذلك حياة القنص والصيد تتطلب التعاون والتكاتف والعمل المشترك بين مجموعة من الرجال كما تتطلب الترحال والتنقل المستمر الذي بدوره يتطلب معرفة المسالك والدروب وموارد المياه والمعالم الجغرافية وغير ذلك من المعارف والمهارات التي يتطلب تعلمها وقتا طويلا مما يحد من جدوى انتقال الزوج إلى موطن لم يتأقلم معه وجماعة لا يعرفهم ولم يتعود على العمل معهم ولا تربطه معهم عصبية الدم التي تؤكد على المسؤولية الجماعية والدفاع المشترك، خصوصا وأن الجماعات الرعوية في الغالب جماعات حربية تعتمد على الغزو وتحتاج إلى قوة ضاربة من الرجال لأغراض الهجوم أو الدفاع عن ماشيتهم (Service 1971: 54-5). كما أن هذه الجماعات الرعوية لديها نظام سياسي متطور نوعا ما مقارنة بالمجتمعات الأكثر بدائية ويتولى فيها الرجال زمام السلطة ومشيخة القبيلة لأنه كلما تبلور مفهوم السلطة وتعاظم دورها وأهميتها كلما أصبحت حكرا على الرجال دون النساء ويطمح شيخ القبيلة إلى أن يورث سلطته لابنه من بعده. وينتشر تعدد الزوجات وانتقال الزوجة للعيش في بيت الزوج في المجتمعات

الزراعية التقليدية، التي تعدّت دور البدائية، خصوصا تلك التي تعتمد على المحراث plow agriculture، نظرا لما يتطلبه هذا النمط الإنتاجي من وفرة في الأيدي العاملة. كما أن هذا النوع من المجتمعات الزراعية يقوم غالبا على العائلات الممتدة، ليس فقط لتوفير الأيدي العاملة الضرورية، وإنما أيضا لأن تفرق الأخوة يعني توازع الأرض الزراعية وتفتيتها إلى قطع صغيرة محدودة الإنتاج وعديمة الجدوى.

تَتَبُّع النسب

يفرق الأنثروبولوجيون بين البنوّة filliation والنسب descent. البنوّة هي الصلة الثنائية المباشرة بين الوالد والمولود، أي علاقة الأبناء والبنات بأمهم أو بأبيهم. أما النسب فهو ما يذهب أبعد من ذلك ويتعدى الوالدين صعودا نحو الأجداد والأسلاف ونزولا نحو الأحفاد وأحفاد الأحفاد. وحينما يتحدث الأنثروبولوجيون عن النسب فإنهم يتحدثون عنه كآلية قانونية تتخذ ثلاثة أوجه يمكن لها أن تجتمع في خط واحد، إما خط الأمومة أو خط الأبوّة، أو أن تتوزع بين الخطين (Rivers 1924: 85-8). هذه الأوجه القانونية الثلاث هي الانتساب كآلية تحكم الميراث inheritance من الوالد لولده، كتوريث الثروة، والانتساب كآلية لانتقال المنصب والجاه والسمعة وما في حكمها succession، والانتساب كآلية لتحديد عضوية الفرد في جماعة معينة كانتمائه إلى هذه العشيرة أو إلى تلك.

ما يُعنى به الأنثروبولوجيون في المقام الأول في دراستهم لأنساق القرابة هو النسب كآلية لتحديد الانتماء العشائري، أي ما يحدد البعد السياسي للانتماء في المجتمعات القبلية والتقليدية ويقوم مقام الجنسية أو الهوية الوطنية في مجتمع الدولة، وهنا يكون التركيز على دراسة الجماعة النّسَبية كوحدة سياسية، ومن ثم دراسة الطرق المتبعة للحفاظ على وحدة الجماعة وتماسكها واستمراريتها perpetuation والاحتفاظ بهويتها وشروط العضوية فيها والانتماء لها recruitment. النسب من هذا المنطلق يشمل جميع الأقرباء، الأحياء منهم والأموات، فالأموات هم الأسلاف الذين يشبّكون الأحياء بعلاقات النسب. فأنت لكي تحدد صلتك بقريب لك بعيد تبدأ في تتبع أسلافك في خط عمودي صعودا من الأحياء منهم مرورا بالأموات حتى تصل إلى الجد الأعلى الذي يجمعكما ثم تنحدر نزولا من خطوط الأكتاف الجانبية المتفرعة من الخط العمودي حتى تصل إلى ذلك القريب المجايل لك (الذي من جيلك). تنتشر الأنساب وتتشعب عبر الزمان والمكان لتنسج شبكة من الولاءات والعلاقات المتداخلة التي توحد بين الناس في الهوية والانتماء مهما باعدت بينهم الأزمنة والمسافات. رباط النسب بما يميّزه من استمرارية وديمومة هو الذي يضمن التواصل وعدم الانقطاع بين الأجيال، من الحفيد إلى الابن إلى الأب إلى الجد وهكذا إن شئت صعودا وإن شئت نزولا على عمود النسب. الناس يولدون ويموتون والعائلات تتشكل وتتلاشى أما الأنساب فإنها تبقى وتستمر عبر العصور والأجيال لأن وجودها يتجاوز وجود الأُسر والأفراد.

تسمى علاقة النسب التي تربط الحفيد بالابن بالأب بالجد علاقة خطّية lineal، وهي ما يسميها النسابون العرب النسب بالطول، وتعني انتساب الأبناء مهما سَفِلوا إلى الآباء مهما عَلَوا، وسوف أسميها أنا علاقة عمودية (من عمود النسب). أما إخوانك وأخواتك فهم أقاربك في الدم بحكم الأخوّة لكنك لم تلدهم ولم يلدوك، لذلك فأنت لا ترتبط معهم بعلاقة عمودية. علاقة الإخوان والأخوات تسمى علاقة جنبية collateral، وهي ما يسميها النسابون العرب النسب بالعرض، وهي ما يربط بين الإخوة أنفسهم وبين الإخوة وأبناء

العم، وسوف أسميها أنا علاقة كتفية لأن الكتفين يقعان على جانبي العمود الفقري، ولأن استخدام مصطلح الكتف والعمود (من العمود الفقريّ، الصلب) يتمشى مع استخدامات اللغة العربية للمصطلحات القرابية ذات الصلة بأجزاء الجسد مثل الرحم والبطن والفخذ، وهلم جرا. وبالإضافة إلى الأخوة والأخوات فإن أعمامك وعماتك وأخوالك وخالاتك وأبناءهم وأبناء أبنائهم يندرجون أيضا تحت مسمى العلاقات الكتفية، بحكم أن علاقتهم مع أبيك وأمك علاقة كتفية ولا ترتبط أنت معهم بخط مباشر. فالعلاقة العمودية هي التي تربط الجد بالوالد بالولد بالحفيد، بينما العلاقة الكتفية هي تلك التي تربط الأقارب الذين ينحدرون من سلف واحد ولكن ليس في خط واحد وإنما من عدة خطوط جانبية متفرعة من ذلك السلف. وتلتئم العلاقات الكتفية في علاقة عمودية حينما يلتقي نسب الفرد مع إخوته في والديهم أو مع أنساب أقاربه الذين تربطه معهم قرابة كتفية في الجد الأول أو الثاني أو جد أعلى من ذلك تشعبت منه خطوط نسبهم. لنبدأ من عائلة تتألف من ثلاثة أجيال، من الوالدين وأولادهم وأحفادهم. القرابة التي تربط أيا من الوالدين نزولا بأي من الأولاد ثم بأي من الأحفاد قرابة دم تسير في خط عمودي مستقيم. كذلك الحال بالنسبة للقرابة التي تربط أي من الأحفاد بأي من آبائهم صعودا حتى الأجداد. أما علاقة الأحفاد ببعضهم البعض وبأعمامهم فهي علاقة كتفية تتحول إلى علاقة عمودية حينما يلتقي الأخ مع أخيه في الوالدين ومع أعمامه في الأجداد. وتندرج علاقات القربى العمودية والكتفية تحت علاقات الدم وعلاقات العصبية consanguinity التي تختلف عن علاقات المصاهرة والرحم affinity. ولكن حينما نتحدث عن الأحفاد والأولاد والآباء والأجداد في تتبع النسب تُرى هل هذا يشمل الذكور، أم الإناث، أم الذكور والإناث معا؟ أي هل نتتبع خط النسب صعودا أو نزولا غير آبهين بجنس القريب المعترض على هذا الخط أم نتتبع الخط من خلال جنس الذكور فقط أو الإناث فقط؟ تختلف أنساق القرابة في طريقة تتبع النسب من الجيل الحالي إلى جيل الأسلاف. فمنها من يتتبع النسب من خط واحد، وهو ما يطلق عليه unilineal descent، سواء خط الأم matrilineal (uterine) أو خط الأب patrilineal (agnatic)، ومنها من يتتبع النسب من الخطين معا cognatic. أو bilateral وبعض الجماعات التي تتتبع النسب من الأم، مثل سكان جزر الترُبْرِيانْد أو قبائل الأَرُنْتا الأسترالية، لا تعترف أصلا بدور الأب في عملية الإنجاب وتعتبره مجرد زوج للأم لا غير، فالأبناء لا يعتبرون العلاقة معه علاقة عصبية ودم وإنما مجرد علاقة مصاهرة، وهو من هذه الناحية لا يختلف مثلا عن زوج الأخت.

تتبع النسب من خط الأم والأب معا يتخذ عدة أشكال (Murdock 1960)؛ فهناك النسب المختلط ambilineal بمعنى أن يكون لك الخيار بين الانتساب إلى جماعة أمك أو إلى جماعة أبيك أو أن تجمع بين خط النسب للأم وخط النسب للأب، كأن يكون لك جد بعيد مشهور وترغب الانتساب له لكنك لا تستطيع الوصول إليه مباشرة من خط الذكور فقط أو من خط الإناث فقط فتضطر للمراوحة بين أجدادك لأمك أو لأبيك تارة وجداتك لأمك أو لأبيك تارة أخرى. وهناك الانتساب إلى خط الأمومة في بعض الشؤون وإلى خط الأبوة في شؤون أخرى، كأن ترث المال الثابت والمنصب السياسي مثلا من الأب بينما ترث الثروة المتحركة والمنصب الديني من الأم، وهذا ما يطلق عليه مصطلح الانتساب المزدوج double unilineal، كما عند قبيلة الياكُو Yako في شرق نيجريا (Forde 1967; Hammond 1971a: 179) وقبائل الهوبِي Hopi من قبائل الهنود الحمر (Fox 1971: 89-91). ولتوضيح مفهوم الانتساب المزدوج يمكننا القول بأنك في الانتساب الأحادي تنتمي فقط إما إلى جدك لأبيك في حال الانتساب الأبوي أو إلى جدتك لأمك في حال الانتساب الأمومي. أما في حال الانتساب المزدوج فإنك تنتمي

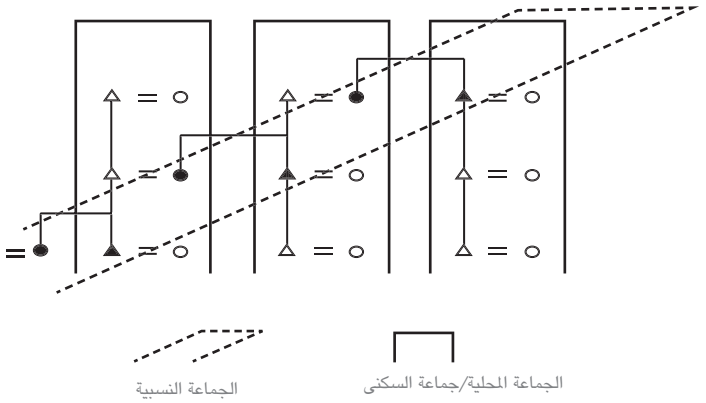

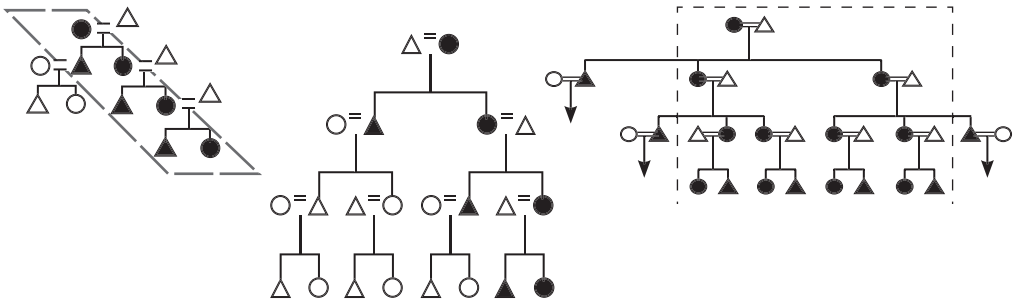

أشكال مختلفة لتوضيح تتبع النسب من الخط الأمومي

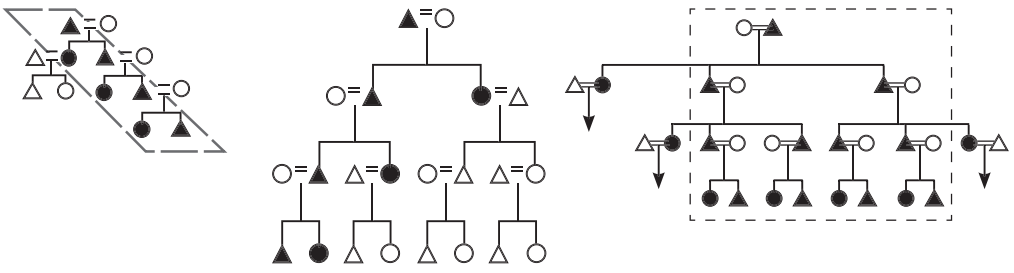

أشكال مختلفة لتوضيح تتبع النسب من الخط الأبوي

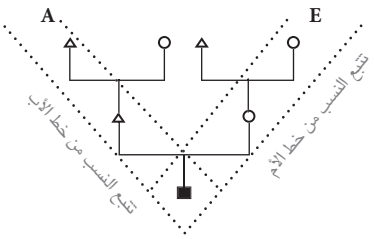

النسب المزدوج

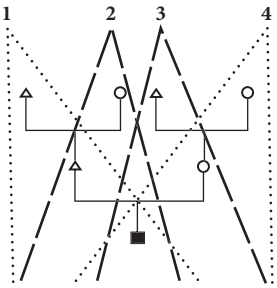

1 / تتبع النسب من الخط الأبوي
2 / تتبع النسب من خط الأم ثم من خط الأب
3 / تتبع النسب من خط الأب ثم من خط الأم
4 / تتبع النسب من الخط الأمومي

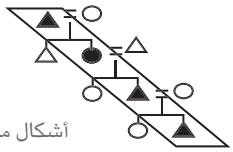

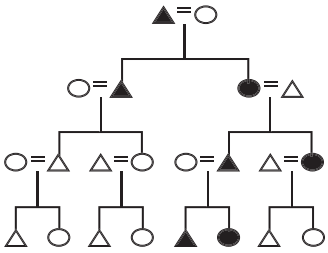

أشكال مختلفة لتوضيح تتبع النسب المختلط

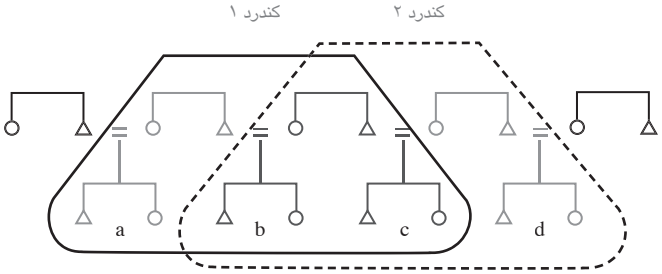

الكندرد. لاحظ كيف يتألف كندر ١ المؤطر بالخط المتصل من الجماعات a، b، c
وكندرد ٢ المؤطر بالخط المتقطع من الجماعات b، c، d وكيف يتداخلان في الجماعتين b، c

إلى جدك لأبيك وإلى جدتك لأمك لكنك لا تنتسب إلى جدتك لأبيك ولا إلى جدك لأمك. هذا يعني أن الفرد في هذه الحالة ينتمي لخطين منفصلين من النسب لا يتقاطعان، هما الخط الأبوي الذي يتسلسل من الذكور أبا عن جد والخط الأمومي الذي يتسلسل من الإناث أُمّا عن جدة (Murdock 1940: 555).

وهناك الانتساب إلى خط الأمومة وخط الأبوة معا وبنفس الأهمية، وهذا ما يطلق عليه مصطلح نسب ثنائي bilineal أو bilateral بحيث تكون علاقة الفرد بأجداده من أمه وأبيه على نفس الدرجة من القربى (Davenport 1959; Murdock 1940; Pehrson 1954). في الانتساب الثنائي تنتمي إلى أجدادك الأربعة بنفس الدرجة. هذا النسب الثنائي الذي يصلك بجميع الأقارب الذين تربطك بهم علاقة الدم من جهة الأباء ومن جهة الأمهات هو الشكل المتبع قديما عند القبائل الأنغلوسكسونية Anglo-Saxon ويسمى كِنْدْرِد kindred أو سِب sib ولا يزال هو شكل النسب المعوّل عليه في الغرب (Phillpotts 1913). هذا الشكل من أشكال النسب لا يعتمد على جد أعلى تتجه إليه صعودا خطوط النسب المتشعبة وتجتمع فيه، بل هو يتمركز على شخص الأنا ego أي المتكلم ego focused الذي يشكل طرف الخيط الذي تبدأ منه شبكة العلاقات العنكبوتية بالصعود إلى أعلى متشعبة في كل الاتجاهات ثم ترتد نزولا حتى الأقارب المجايلين، أي أبناء عمومة الأنا، أو الجيل الذي أسفل منهم. وتتحدد عضوية الكندرد من خلال سلسلة مترابطة من علاقات القربى المتشعبة بين عوائل التنشئة وعوائل الإنجاب (Murdock 1960: 4). وحيث أن هذه الطريقة في تحديد الأقارب تتمحور على الأنا فإن ذلك يعني أن لكل أنا شبكة من الأقارب خاصة به تختلف عن غيره من الناس بينما يمكنه في نفس الوقت أن ينتمي إلى عدد غير محدد من الشبكات القرابية لأفراد آخرين يحتلون موقع الأنا في هذه الشبكات. هذا النوع من الشبكات القرابية شديد التداخل بحيث أن شبكة أقارب زيد من الناس قد تتقاطع مع شبكة عبيد، ودرجة التداخل وعمقه تعتمد على قربهما أحدهما من الآخر، لكن الشبكتين لن تتطابقا تماما إلا في حال كون زيد وعبيد أشقاء خلصاء. ولكن حتى لو كانا أشقاء فإن دورة الحياة ومرور الزمن وتبدل حالهما أو أي منهما لاحقا من العزوبية إلى الزواج وإنجاب الأولاد سوف يؤدي في آخر الأمر إلى اختلاف الشبكتين. حتى شبكة أقارب الأم وشبكة أقارب الأب سوف تتداخلان مع شبكة أقارب كل واحد من الأولاد لكنها لن تتطابق معها. ومن تشملهم شبكة أقارب فلان من الناس قد يكون من بينهم من لا يمت بصلة قرابة للآخرين في الشبكة إذ أن ما يجمعهم ليس قربهم هم من بعضهم البعض أو انحدارهم من جد مشترك وإنما هو تمركزهم حول قريب مشترك هو الأنا (Fox 1971: 163-9; Freeman 1961).

تمركز هذه الشبكة القرابية حول الأنا يعني أنها سوف تنتقض وينتهي مفعولها بمجرد أن يموت الأنا، بمعنى أنها تولد مع ولادة الأنا وتموت بموته، فهي لا تدوم وليس لها صفة الاستمرارية التي للجماعة التي ينتمي أفرادها إلى جد مشترك يمثل نقطة الارتكاز بالنسبة لهم ويجمعهم الانتساب له حيا كان أو ميتا. اختلاف مجموعة الكندرد من شخص لآخر وتغيرها المستمر وقابليتها للزوال يحد من فاعليتها ويجعلها تفتقر إلى الأساس التنظيمي الذي يضفي عليها الصفة القانونية والاستمرارية التي تمكنها مثلا من حيازة الأرض وتوريثها أو توريث السلطة أو الجاه أو المكانة الاجتماعية لأي من أعضائها. كما أن تداخل شبكات الكندرد قد يؤدي إلى التعارض أحيانا إذا كان الشخص عضوا في شبكتين وحدث بينهما خلاف أو ثأر أو حدث أن كليهما لديهما مناسبتان أو عيدان في نفس الوقت وعلى الشخص أن يختار أيهما يحضر. ما يميز هذه الجماعة هو ملاءمتها للمجتمعات التي يعمل فيها الأفراد بشكل فردي مستقل حيث لديها المرونة

والقدرة على الاستجابة الفورية للتعامل مع الظروف الطارئة والمهمات العاجلة، كأن يحصل منها الشخص على المساعدة والعون عند الزواج أو في حالات الوفاة أو تنظيم رحلات الصيد أو الغزو أو أعمال الفلاحة وما شابه ذلك من المهام الآنية والمؤقتة. كما يمكن تفعيل هذه الجماعة في قضايا مثل قضايا الثأر أو جمع الدية، أو ما يسمى wergild، أو ما يقابل مصطلح "العاقلة" عند العرب، كما كان هو الحال عند شعوب التيوتون الجرمانية القديمة Teutons. المتبع في مثل هذه الحالة أن يلتزم الأقارب بجمع الدية لمساعدة الأنا لو كان الأنا هو القاتل ومقابل هذا الالتزام فإن كلا منهم يحصل على نصيبه من دية الأنا لو كان هو المقتول (Beattie 1964: 98; Phillpotts 1913).

النظام العشائري

في حال الانتساب المختلط وعدم التمييز بين الخطين الأمومي والأبوي في تتبع النسب، كما في نظام الكندرد، ينتسب الحفيد من خلال والديه معا لجديه من الأب وجديه من الأم. هذا يعني أنه سيحصل على أربعة أجداد، أجداده لأمه ولأبيه معا. ولو صعد جيلا أعلى فإنه سيحصل على ثمانية أجداد. ومع كل جيل صاعد يتضاعف عدد الأجداد حتى يبلغ عددهم ٥١٢ جدا وجدة حينما نصل إلى الجيل الثامن من الأجداد. كما أننا كلما نزلنا إلى أسفل سيورث الأجداد الأربعة أسماءهم بالتساوي من خلال أبنائهم وبناتهم إلى أحفادهم وأحفاد أحفادهم. وكلما تضاعف عدد الأجداد كلما تضاعف عدد الأقارب المنحدرين عن أولئك الأجداد مِمّن تربطهم بالمتكلم علاقة كتفية، أي عمومته وعماته وخواله وخالاته وأبنائهم وعمومة أبيه وأمه وعماتهما وخوالهما وخالاتهما وأبناء أولئك جميعا، وقس على ذلك صعودا حتى "عدنان" أو "قحطان". تتبع النسب بهذه الطريقة الثنائية يعني اندماج خط النسب الذكوري مع خط النسب الأنثوي مما يصعب معه فك اشتباكهما والتفريق بينهما، كما يعني أن الصعود إلى الأجداد البعيدين الذين تفصلهم عن الأنا عدة أجيال ستكون نتيجته مجموعة لا تحصى من الأقارب تتشابك بطريقة معقدة يصعب فكها. ومن الواضح أن هذه طريقة غير عملية وغير مفيدة من الناحية الاجتماعية إذ تشكل عبئا على الذاكرة وتجعل من المستحيل على أي شخص أن يتتبع ويعرف كل الأشخاص الذين يرتبط معهم بصلات القربى ويتفاعل معهم أو يفعّل علاقته معهم بشكل مفيد. لذا غالبا ما يقلص الشخص العدد ويكتفي بمجموعة صغيرة من الأشخاص الذين يجتمع معهم في الأجداد القريبين الذين لا يفصله عنهم إلا جيلين أو ثلاثة أجيال على الأكثر، وهم أبناء العم من الدرجة الخامسة أو السادسة الذين تربط بينه وبينهم مصالح مشتركة ومشاعر متبادلة بما يتضمنه ذلك من حقوق وواجبات ويتطلبه من أنماط محددة في السلوك والتعامل.

وهناك طريقة أخرى لتقليص عدد الأقارب تتمثل بالتتبع الأحادي للنسب، أي تتبع النسب إما من الخط الأبوي واستبعاد أقارب الأم أو من الخط الأمومي واستبعاد أقارب الأب. المجتمعات العشائرية والتقليدية التي يعتمد تنظيمها الاجتماعي على علاقات القربى وترتكز عليها في تحديد الولاء والانتماء يتم تتبع النسب فيها غالبا من خط واحد فقط، إما الخط الأنثوي والانتماء لعشيرة الأم وإما الخط الذكوري والانتماء لعشيرة الأب، خصوصا بعدما يحقق المجتمع قدرا من التطور التكنولوجي ويتبلور عنده مفهوم الملكية الخاصة. النسب الأحادي يحدد بشكل واضح حقوق الملكية والطريق الذي ينتقل من خلاله الميراث من السلف إلى الخلف وبذلك يحسم النزاعات والمشاحنات التي يمكن أن تترتب على انتقال ملكية الأرض والثروة من الآباء

إلى الأبناء. كما أن تبلور مفهوم الملكية يعني حاجة الجماعة إلى التكاتف لصد اعتداءات الطامعين في أراضيهم وممتلكاتهم. أي أن النسب الأحادي يأتي كنتيجة لحدة التنافس على الأرض وعلى المراعي والمياه والموارد الطبيعية الأخرى وما قد يؤدي إليه ذلك من أعمال الغزو والحروب مع الجماعات المحيطة وغير ذلك من التحديات والضغوط الخارجية. هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن الفرد لا تربطه أي علاقة بعشيرة الأم في حال الانتماء لعشيرة الأب أو العكس، بل إن أولئك يشكلون بالنسبة له قرابة رديفة complimentary filliation يمكنه اللجوء لها في الملمات، كأن يحصل قحط في مرابع عشيرته أو يحصل خلاف بينه وبين أبناء عمومته. كما أنه قد يرث بعض الامتيازات أو الانتماءات عن طريق الأم. لكن الانتماء بما يعنيه من حقوق وواجبات والتزامات قانونية ينحصر فقط في العشيرة التي ينتسب لها الفرد والتي هي أشبه بالمؤسسة ذات الشخصية الاعتبارية corporation التي تحتفظ بهويتها ويستمر وجودها على مرور الزمن بالرغم من تكرر دخول الأعضاء فيها عن طريق الولادة وخروجهم منها عن طريق الوفاة، وغالبا ما يشتركون في ملكية أرض العشيرة والكل له الحق في استثمار مواردها بحكم انتسابه لها (Fortes 1953; 1969: 276-310; Middleton & Tait 1958: 3-8).

هنا لا بد من إعادة ما سبق وأن ألمحنا إليه من ضرورة التفريق بين النسب العائلي كعلاقة قربى بين الأفراد من الأهل الذين ينتمون لنفس العائلة ويرتبطون ببعضهم من خلال مشاعر الود والألفة والاحترام وبين النسب العشائري كآلية لتحديد الانتماء القبلي. كما سبق وأن أكدنا على أن مرتكز النسب الأحادي ليس الأنا، كما في النسب الثنائي، وإنما هو جد بعيد أو سلف مشترك ancestor. إما حقيقي أو مفترض، يجمع كل من ينحدرون منه في جماعة قرابية محددة عضويتها واضحة المعالم. ويكون السلف ذكرا في حال تتبع النسب من خط الأب patrilineage أو أنثى في حال تتبع النسب من خط الأم matrilineage.

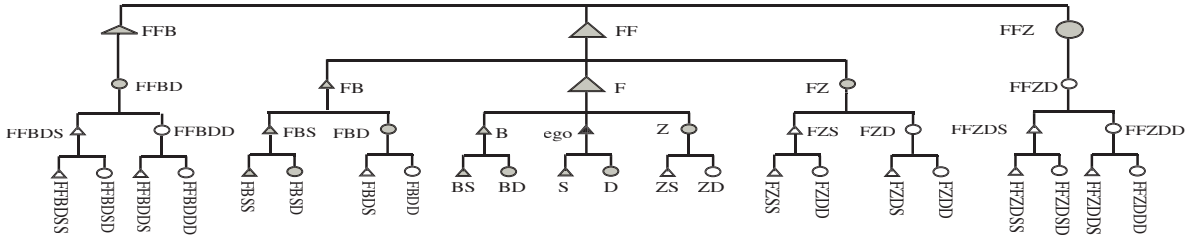

المشجر الأعلى يبين النسب الأبوي عبر أربعة أجيال والمشجر الأسفل يبين النسب الأمومي. لا حظ كيف يتوقف النسب الأبوي عند البنات والنسب الأمومي عند البنين فلا يشمل أولادهم لأن الأولاد في النسب الأمومي ينتسبون لعشيرة أمهم لا لعشيرة أبيهم وفي النسب الأبوي ينتسبون لعشيرة أبيهم.

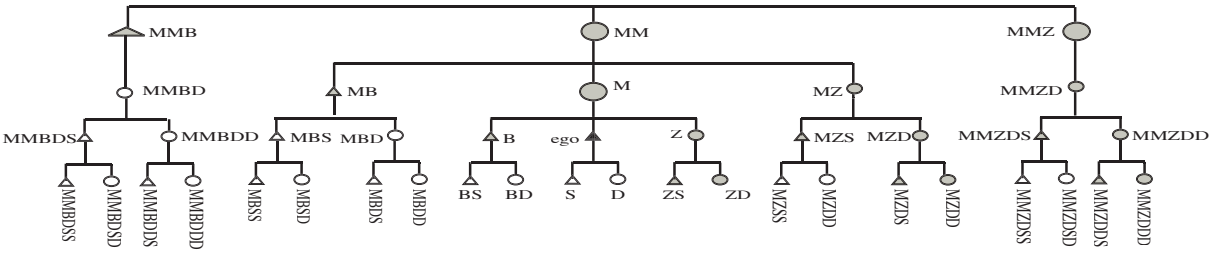

لكن لو تتبعت نسبك من خط واحد، سواء من أمك أو من أبيك، فإنك مضطر للتمييز بين الخط الذكوري والخط الأنثوي بحيث تنتسب فقط إما إلى جَدّك لأبيك أو جَدّتك لأمك، تبعا لجنس الخط الذي اتبعته. كذلك في الجيل التالي لن تنتسب إلا إما إلى جَدّ أبيك لأبيه أو جَدّة أمك لأمها. أي أنك في حال الانتساب من خط الأب فقط تنتسب في الاتجاه الصاعد من خلال أبيك لجدك من الأب ولا تنتسب لجدتك من الأب ولا لجدك ولا جدتك من الأم. وفي حالة الانتساب من خط الأم فقط تنتسب من خلال أمك لجدتك من الأم ولا تنتسب لجدك من الأم ولا لجدك ولا لجدتك من الأب. تتبع النسب من الخط الأبوي يعني أن الأب وإخوته وأخواته وذريته من بنين وبنات ينتسبون إلى عشيرته، لكن إخوته وأبناءه وأبناءهم من الذكور فقط هم اللذين يُمررون النسب العشائري إلى ذراريهم لأن ذراري الأخوات والبنات سوف لن ينتسبوا لهن وإنما لأزواجهن، أي لآبائهم اللذين ينتمون لعشائر غير عشائر الأمهات. أما إذا تتبعنا النسب في الخط الأمومي فإن الأم وإخوتها وأخواتها وذريتها من بنين وبنات كلهم ينتسبون لعشيرتها لكن الأخوات والبنات وبنات الأخوات والبنات فقط هن اللاتي تُمَرِّرن النسب العشائري إلى ذراريهن. أما ذراري إخوانهن وأبنائهن فإنهم يأخذون نسبهم من أمهاتهم اللاتي ينتمين لعشائر غير عشائر الآباء. بناء على ذلك ينتمي الإخوة (ذكورا وإناثا) في النسب العشائري الذي يتم تتبع النسب فيه من خط واحد، سواء من خط الأم أو من خط الأب، إلى نفس النسب ويعتزون صعودا إلى نفس السلف الذي يجمع عشيرتهم في نسب واحد. لكن في هذا النوع من النسب لا يمكن توريث النسب نزولا إلا إما عن طريق الذكور إن كان النسب الأحادي نسبا ذكوريا أو عن طريق الإناث إن كان أنثويا. لذا فإن أبناء الأخ سوف ينتمون إلى عشيرة تختلف عن تلك التي ينتسب لها أبناء الأخت. فالإخوة وأبناؤهم في النسب الذكوري سوف ينتمون لنفس العشيرة بينما ينتسب أبناء أخواتهم إلى العشائر التي ينتسب لها أزواج الأخوات. هذا على خلاف النسب الأنثوي الذي تنتسب فيه الأخوات وأبنائهن إلى نفس العشيرة بينما ينتسب أبناء إخوانهن إلى العشائر التي تنتسب لهن زوجاتهم.

مكان العيش بعد الزواج وما إذا كانت الزوجة هي التي تنتقل للسكنى مع الزوج أو العكس يلعب دورا حاسما في تحديد شكل النسب العشائري وما إذا كانت العشيرة في نهاية الأمر ستتبع النسب من خط الإناث أم من خط الذكور. فإذا كان قوام العشيرة المحلية يتشكل من مجموعة من الإناث مع أمهاتهن وبناتهن وأزواجاهن الغرباء يأتون إليهن من جماعات أخرى فإن جماعة الإناث هذه سوف تتبنى النسب الأنثوي (Fox 1971: 78-98; Pasternak *et al* 1997: 214). وبطبيعة الحال سوف يوجد مع هذه الجماعة من الإناث رجال هم إخوانهن وأبناءهن. فأبناء الأخوات وإخوانهن يستمرون في العيش معهن حتى بعد ما يتزوجون.

المجتمعات البدائية البسيطة التي تعتمد على الزراعة البدائية والبستنة horticulture يتم تتبع النسب فيها غالبا من الخط الأنثوي حيث ينتسب الأطفال لعشيرة الأم. أعمال البستنة لا تحتاج إلى مساحات كبيرة من الأرض ولا إلى طاقة كبيرة ولا إلى جهد عضلي لذا تحتل النساء مركز الصدارة في العملية الإنتاجية ويتقلص دور الرجال الذين يمضون وقتهم غالبا في القنص وصيد الأسماك. كما أنه لا حاجة للرجال في أعمال الدفاع والهجوم في هذه المجتمعات لأنها عادة ما تكون مجتمعات بدائية صغيرة ومسالمة ليس فيها مطمع ولا تقوم بينها حروب. ينتسب الفرد في هذه المجتمعات، ذكرا كان أو أنثى، لعشيرة أمه وترث البنت عن أمها ما تملكه من أرض زراعية ومن أدوات بينما يرث الابن من خاله الجاه والثروة والمكانة الاجتماعية. ومن الطبيعي أن تتبنى هذه المجتمعات النسب المتسلسل في خط الأمومة لأن النساء غالبا هن من يزاولن العمليات الإنتاجية

وهن لذلك من يملكن الأرض، كما عند قبائل الأُرُكْواي Iroquois الهندية في نيويورك وقبائل الزوْني Zuni في أريزونا في أمريكا الشمالية وقبيلة الأَشانْتِي Ashanti في غانا في أفريقيا (Fortes 1950; Hammond1971a: 164-5). وحيث أن المرأة هي مالكة الأرض وهي المعيل فهي لا تبرح مكانها بعد الزواج ولا تنتقل إلى بيت زوجها لأن أمها وأخواتها يحتجن لمساعدتها وتعاونها معهن في العملية الإنتاجية ولأن الأرض الزراعية أو جزءا منها سيؤول لها بالميراث. ما يحدث هو أن الزوج، الذي غالبا ما يكون ساكنا مع أمه وأخواته في قرية أخرى، يأتي من حين لآخر ليعاشر زوجته ثم يعود إلى حيث تسكن أمه وأخواته. وإذا ولدت الزوجة يبقى أطفالها معها ولا يراهم أبوهم إلا حينما يأتي لزيارة الزوجة. في هذه الحالة يصبح أخو الزوجة الذي يقيم معها، وليس أبو الأولاد الذي يقيم مع أمه، هو الوصي عليهم والمسؤول عن تربيتهم وتنشئتهم وهو الذي يمثل رمز السلطة بالنسبة لهم، وحق الخال على ابن اخته يسمى avunculate (Goody 1959).

وعلى الرغم من أن النساء هن القوة المنتجة والمالكة لأدوات الإنتاج في المجتمعات التي تنتسب لخط الأم إلا أن الرجال، مع ذلك، هم الذين بيدهم السلطة وتدبير شؤون الأسرة وتمثيلها في علاقاتها مع الأسر الأخرى وفي مجلس العشيرة نظرا لأنهم الأقوى جسديا والأقدر على التعامل مع ما قد يشوب هذه المهام السلطوية من نزاعات ومشاحنات، ونظرا كذلك لانشغال النساء معظم الوقت بشؤون الحمل والولادة والرضاعة والعناية بالأطفال، إضافة إلى أعمال البستنة، مما لا يترك لهن فائضا من الوقت لشؤون الحكم والسياسة. لكن السلطة في هذه المجتمعات ليست بيد الزوج، كما في المجتمعات الأبوية، وإنما بيد أخو الزوجة. هذا لا يعني أن الزوج ليس له سلطة، بل له سلطة لكنها ليست على زوجته وأولاده وإنما على أخته وأولادها (Pasternak *et al* 1997: 265-6). لذا نجد أن الأخوات لا يستغنين عن إخوانهن الذين يقيمون معهن وليس مع زوجاتهم.

كلما زادت مساحة الأرض المزروعة وتطلبت فلاحتها عملا أكثر مشقة وعددا أكبر من الأيدي العاملة كلما تحول العمل الزراعي ليصبح مهمة رجالية مما يتعذر معه على الرجال مغادرة المكان والذهاب لزيارة زوجاتهم عند أهلهن، خصوصا إذا تباعدت القرى والبساتين. هنا يبدأ الزوج محاولة اجتذاب زوجته وإغرائها بالانتقال من بيت أهلها والعيش معه ليبقى هو مع أمه وأخواته لتدبر أمورهن. وإذا ما تخلى الأهل عن ابنتهم للحاق بزوجها والعيش معه فإنهم يظلون محتفظين بحقهم في نتاج رحمها، أي كأنهم يعيرون ابنتهم للزوج يخصّبها لهم ويرد لهم نتاجها. عودة الابن إلى أهل أمه للعيش مع خاله هو بمثابة التعويض للخال عن أخته التي افتقدها، أو لنقل للأسرة عن فتاتهم التي تركتهم وذهبت للعيش مع زوجها. لاحظ أن الأب الذي تركه ابنه والخال الذي استرد ابن أخته كان كل منهما قد سبق له وأن ترك بيت أبيه بعدما تزوج وذهب للعيش مع خاله، كذلك الابن بعدما يرزق بأولاد ويكبرون ويتزوجون ستذهب البنت للعيش مع زوجها لكن أولادها سيعودون للعيش مع خالهم، كما عند جماعة الكونغو في أفريقيا. ويسمي انتقال ابن الأخت للعيش مع خاله avunculocal (Fox 1971: 106-9). وابن الأخت حينما يذهب للعيش مع خاله فهو يحل محل ابن الخال الذي سيذهب بدوره للعيش مع خاله من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه بعد ما ينتقل من بيت أبيه سيحل محله ابن أخت أبيه. وحيث أن تسلسل النسب والميراث في هذه المجتمعات يَدْرُج عن طريق الخط الأنثوي فإن الأبناء يبقون تحت رعاية أمهم وأبيهم في الصغر ولكن كل من بلغ منهم سن الحلم وتزوج انتقل هو وزوجته من بيت أمه وأبيه للسكنى مع خاله الذي سيرث عنه مكانته وسلطته في العشيرة، وبعدما ينجب ويكبر أولاده سيذهبون بدورهم مع زوجاتهم إلى بيت خالهم.

العشائر التي تنتسب لخط الأمومة تعاني من خلل بنوي متغلغل في النسق نفسه يهدد استقراره. يأتي هذا الخلل من كون الروابط الأساسية في هذه المجتمعات، كما رأينا، هي، من جهة، بين الأخت وأخيها وليس بينها وبين زوجها، ومن جهة أخرى بين الخال وابن أخته وليس بين الأب وابنه. أي أن هناك تجاذب بين علاقة الأخت بأخيها وعلاقتها بزوجها وبين علاقة الخال بابن أخته وعلاقته بابنه، فكل علاقة من هذه العلاقات ستكون على حساب الأخرى (Fox 1971:111-2; Murphy 1979: 101-9). وجود الزوج وانتقاله للعيش مع زوجته وأخيها أشبه بحصان طرواده، فهو يدق إسفينا في العلاقة التي تربط بين الأخت وأخيها حيث أن هناك تنازع بين علاقة الأخت بأخيها من ناحية وعلاقتها بزوجها من ناحية أخرى. ويمكن أن نقلب المعادلة ونقول إن هناك تنازع بين علاقة الأخ بأخته الذي تقع عليه مسؤولية رعاية شؤونها وإدارة ممتلكاتها وعلاقته بزوجته التي هي أم أبنائه. كما أن هناك تنازع بين علاقة الابن بأبيه من ناحية وعلاقته بخاله من ناحية أخرى. يعيش الأب في هذه المجتمعات حالة صراع داخلي حيث يتنازعه عاملان: محبته لابنه الذي تجذبه إليه العاطفة وحنان الأبوة من ناحية ومسؤوليته تجاه ابن أخته الذي عليه أن يورثه سلطته ومكانته وثروته من ناحية أخرى. بعد أن يربي الأب ابنه ويعلّمه ويتعلق به يتركه إذا بلغ الحلم وينتقل للسكن مع خاله. الرابط الأساسي في هذه المجتمعات هو ذلك الذي يربط بين الأخت وأخيها لأن ابنها يرث من جهتها ما يرثه عن خاله من مال وجاه، فهي القناة الموصلة وطريق عبور الميراث من أخيها إلى ابنها، بمعنى آخر من جيل لآخر من أجيال الذكور. هذا مما يضعف صلة الرجل بأولاده ويضعف سلطته على زوجته التي تستقوي عليه بحكم وجود أخيها إلى جانبها مما يؤدي إلى عدم اكتراث الزوجين كثيرا برباط الزوجية ومسارعتهما إلى الطلاق عند أدنى مشكلة (Fox 1971: 104-9; Hammond 1971a: 175; Harris 1971: 328-31).

الانتساب من الخط الذكوري أكثر انتشارا من الانتساب من الخط الأنثوي وغالبا ما ينتشر في المجتمعات الرعوية وفي المجتمعات التي تعتمد على حيازة الأَرَضين والزراعة المتطورة التي تعتمد على المحراث والطاقة الحيوانية. مع تقدم التكنولوجيا في المجتمعات التي تنتسب لخط الأمومة وزيادة مساحات الأرض المزروعة وازدياد أهمية المنتوجات الزراعية كمصادر للغذاء، كبديل للجمع والالتقاط والقنص والصيد، تزداد أهمية دور الرجال في العملية الإنتاجية وينحسر دور النساء الذي يقتصر شيئا فشيئا على الأعمال المنزلية وتربية الأطفال ومزاولة الطقوس والشعائر الدينية. ومما يزيد من أهمية دور الرجال زيادة حدة النزاع على الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة. من هنا تبرز أهمية بقاء الإخوة وأبناء العمومة قريبين من بعضهم ومتعاضدين لصد أي اعتداء على أراضيهم وممتلكاتهم، بدلا من أن يتشتتوا ويذهب كل منهم للعيش مع زوجته عند أهلها. هنا لا بد للزوجات من الانتقال إلى بيت الزوجية ليبقى الأزواج من الإخوة وأبناء العم مع بعضهم مجتمعين ومتكاتفين لفلاحة الأرض وصد الاعتداءات، هذا بينما تتفرق نساء الجماعة وتذهب كل منهن للعيش في بيت زوجها. وإذا استمر هذا الوضع لفترة طويلة يزداد تمركز قوة الرجال أكثر فأكثر حتى يتحول المجتمع في النهاية من النسب الأمومي إلى النسب المزدوج ثم إلى النسب الأبوي (Fox 1971: 109-10; Murdock 1940: 561). فالنسب في نهاية المطاف ليس في حقيقته إلا إفراز أيديولوجي يعكس الوضع القائم على الأرض وتَشَكُّل بنيوي تفرضه ظروف البيئة ومعطيات التكنولوجيا التي ترتبط وظيفيا مع بعضها البعض. وكلما تغيرت هذه الظروف والمعطيات تغيرت معها أيديولوجيا النسب. فلو أن عصبة متضامنة من الرجال ظلوا مستقرين ومقيمين لعدة قرون مع آبائهم وأبنائهم وزوجاتهم الغريبات اللاتي أتين إليهم من جماعات مختلفة

ليُقِمن معهم بدلا من ذهابهم هم والبقاء مع زوجاتهم وأصهارهم فإنهم مع تعاقب الأجيال سيعتبرون أنفسهم إخوة وأبناء عمومة منحدرين من صلب رجل واحد.

في المجتمع الأمومي لا تستغني الأخوات عن إخوانهن، كما رأينا. دور النساء دور محوري في إنجاب الأطفال الذين يضمنون استمرارية الجماعة لكن إخوانهن هم الذين يتولون مهام السلطة ورعاية مصالح الجماعة والدفاع عنها ضد الجماعات الأخرى. أما في المجتمع الأبوي فمن السهل على الأخ أن يستغني عن أخته التي لا يستطيع أن ينجب أطفاله منها ويستبدلها مع أخت شخص آخر كل منهما يتزوج أخت الآخر. في المجتمعات التي تنتسب للأم نجد أن أخت الرجل هي التي تنجب الأولاد للعشيرة وهذا مما يقوي ارتباط الأخ بالأخت والأم بالبنت مما يضعف دور الزوج والأب. بل لوكان التلقيح الصناعي متاحا للمجتمعات الأمومية لما احتاجت لا للزوج ولا للأب، كما يقول روبن فوْكس Robin Fox (Fox 1971:121). أما في المجتمعات التي تنتسب للأب فإن الأخت تنجب الأولاد لعشيرة زوجها لا لعشيرة أخيها وهذا مما يضعف رباط الأخ بأخته. أضف إلى ذلك أن المجتمعات التي تتبع النسب الذكوري تتمركز فيها العلاقة القرابية بين الأب والأخ والإبن ويندمج فيها النسب مع مهام السلطة والدفاع عن الأرض والمتلكات ومهام الإنتاج حيث يتولى الرجال هذه المهام جميعها، على خلاف مجتمعات النسب الأنثوي التي لا غنى لها عن الرجال للقيام بمهام السلطة والدفاع. لذا نجد أن انتقال الزوجة إلى بيت زوجها في المجتمعات التي تتبع النسب الذكوري يختلف عن انتقال الزوج إلى بيت الزوجة في المجتمعات التي تتبع النسب الأنثوي. أدوار النساء في المجتمعات الأبوية عادة أدوار ثانوية وليس لهن أي دور في تحديد النسب لذا يمكن الاستغناء عن البنات وتصديرهن كزوجات لرجال العشائر الأخرى. وبمجرد انتقال الزوجة إلى بيت زوجها تبدأ صلتها بأهلها تضعف، خصوصا وأن انقطاعها لخدمة زوجها وانشغالها المستمر بالحمل والولادة وتربية الأولاد واحدا بعد الآخر تحد من حركتها وقدرتها على الذهاب لزيارة أهلها متى شاءت (Pasternak *et al* 1997: 217). أما في الحالة الأخرى فإن الزوج الذي لا تثقله دورات الحمل والولادة يمكنه، بل إنه مضطر، لأن يمضي وقته جيئة وذهابا بين زوجته للقيام بمهامه الزوجية وبين أمه وأخواته اللائي لا غنى لهن عنه لتدبير شؤونهن وإدارة ممتلكاتهن والدفاع عنها. يكاد يخلو المجتمع الأبوي من التناقضات التي يعاني منها المجتمع الأمومي، حيث أن مكان السكنى والانتساب وممارسة السلطة تصبح كلها عند الرجال، علاوة على توثق الصلة بين الأب وأبنائه. قوام الجماعة الأبوية هو العلاقة التي تربط الرجل بابنائه وإخوانه، أما النساء فلا يعود لهن أي دور عدا دورهن كزوجات وكأمهات ينجبن الأطفال. في المجتمع الأمومي تقع على الأخوات مهمة الإنجاب الذي يضمن استمرارية الجماعة، بصرف النظر عن كيف يتم الإنجاب ومن يكون الأب لأن الانتساب للأم وليس للأب، لذا يحرص المجتمع الأمومي على الاحتفاظ بإناثه، أما المجتمع الأبوي فيحصل على إناثه من مجتمعات أخرى. ولتزايد أهمية دور الأب وانتقال مهمة إنجاب الأطفال للعشيرة من الأمهات والأخوات إلى الزوجات وانتساب الأبناء لأبيهم، تتخذ عفة النساء في المجتمعات الأبوية أهمية خاصة حيث يصبح نتاج رحم الزوجة حق مطلق لزوجها ولعشيرته، لذا لا بد أن يتأكد بأن الأبناء الذين تنجبهم زوجته والذين سيرثون عنه ماله وسمعته ومكانته في العشيرة هم فعلا أبناؤه ومن صلبه.

يأخذ النسب الأحادي شكل القمع الذي يستدق من الرأس ويتعرضن من القاعدة بحيث يزداد عرض القاعدة مع مرور الزمن ويتناسب مع عُمق النسب وعدد الأسلاف الذين يفصلون بين القاعدة من الأحياء

وجدهم المشترك. ذلك لأننا كلما صعدنا على عمود النسب كلما التمت الأكتاف المتحدّرة يمينا وشمالا من الإخوة واندمجت في العمود وكلما نزلنا كلما تشعبت من عمود النسب أكتاف ومن الأكتاف أكتاف أخرى يزداد عددها كلما نزلنا إلى أسفل، وهكذا حتى نصل إلى جيل الأحياء. بمعنى أننا كلما تقدمنا زمنيا من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة كلما تقسمت الخطوط العمودية إلى خطوط فرعية وعلى العكس من ذلك كلما تقهقرنا زمنيا من الأجيال اللاحقة إلى الأجيال السابقة كلما التمت الخطوط الفرعية في خطوط عمودية.

حينما تكبر العشيرة ويزداد عدد المنتمين لها ويتباعدون في النسب زمانيا ومكانيا قد لا يستطيع كل واحد من هؤلاء أن يتذكر صلته بسلف العشيرة أو أن يتتبع بالتحديد الدقيق علاقات القرابة التي تجمعه مع الآخرين من أبناء عمومته وأقاربه الذين ينتمون للعشيرة، رغم معرفة الجميع، أو افتراضهم على الأقل، أن هناك صلة قرابة تربطهم وأنهم ينتمون لجد بعيد يجتمع فيه نسبهم. فلو افترضنا أن رجلا رزق بولدين كل منهم رزق بولدين واستمر الحال على هذا الوضع حتى الجيل العاشر فإن حصيلة هذا الجيل من الذكور ستكون ٥١٢ ذكرا دون النساء، ولو أضفنا لهم من لا يزال على قيد الحياة من الآباء والأجداد والنساء فإن العدد سيكون أكثر من ذلك، خصوصا لو افترضنا أن الجيلين السابقين ما زالا على قيد الحياة. وبالمقابل، يمكن لأحد خطوط النسب أن ينقرض تماما لو زادت نسبة الوفيات عن نسبة المواليد. ومع مرور الزمن وازدياد عدد أفراد العشيرة يتشتتون في البلاد حينما تضيق بهم سبل العيش في مواطنهم. عند هذا الحد تنقسم العشيرة إلى بطون كل بطن قائم بذاته. ثم تنقسم البطون إلى أفخاذ والأفخاذ إلى بدايد minimal lineages (مفردها بديدة أو فِنْدة). هنا يتراوح انتماء الفرد ما بين الانتماء المحدود إلى أصغر فصيل ينتمي إليه، وهو البديدة، وما بين الانتماء الأعم والأشمل ابتداء من الفخذ إلى البطن ثم إلى العشيرة التي تتألف من عدد من البطون التي تعشش داخلها وكل بطن يعشش داخله عدد من الأفخاذ، وهكذا (Barbeau 1917; Fox 1971: 92). الفرق بين البديدة lineage والعشيرة clan وما بينهما من نقاط التمفصل يعتمد على العمق الزمني للخط العمودي والأكتاف المتفرعة عنه، أي عدد الأجيال المتناسلة من الجد المشترك. البديدة أقل عمقا من العشيرة لذا يمكن معرفة الجد المشترك الذي انحدرت منه العوائل المنتمية للبديدة وتتبع صلات القربى التي تربط جميع الأفراد المنتمين إليها.

تختلف العشيرة عن البديدة في أن أفراد البديدة تجمعهم قرابة حقيقية وينحدرون جميعهم من سلف معروف ويشكلون وحدة اجتماعية واقتصادية ذات مسؤولية مشتركة –كما في حالات الثأر مثلا– يتعاونون ويشتركون في المغانم والمغارم وملكية الأرض بما فيها من مراعي وموارد طبيعية، بحيث لا يحق لأحد منهم أن يدعي ملكية الأرض أو يتصرف بمفرده ببيع أي جزء منها، ويسلمون زمام قيادتهم وتصريف أمورهم لكبار السن والحكماء المتمرسين من ذوي الخبرة والحنكة. إنهم أشبه بمفهوم الخمسة عند القبائل العربية الذين يجمعهم وسم واحد يسمون به أنعامهم ونخوة واحدة تحدد هويتهم ويعتزون بها في الحروب. أما العشيرة فإنها مبنية على قرابة مفترضة، وهي أقرب إلى التنظيم السياسي والديني منها إلى التنظيم الاجتماعي أو الاقتصادي، حيث تكاد تنحصر وظيفتها على التنسيق والعمل المشترك فيما يخص الاحتفالات الدينية والطقوس والشعائر والقضايا ذات الطابع الديني والسياسي، خصوصا العلاقات والنزاعات مع العشائر الأخرى. وعادة ما يختار أبناء العشيرة لعشيرتهم أو سلفهم المفترض اسما طوطميا مشتقا من أحد النباتات أو الحيوانات المعروفة في بيئتهم، والتي قد يكون لها أهمية خاصة إما كمصدر للغذاء أو الدواء أو ما شابه

ذلك ويؤلفون خرافة تربط أصل عشيرتهم ونسب جدهم بالطوطم. وقد تتحد مجموعة من العشائر المتجاورة التي تتكلم لغة واحدة وتشترك في العادات والتقاليد في تجمع أكبر هو القبيلة tribe، وإذا اتحدت مجموعة من القبائل شكلت ما يسمى شعب nation أو اتحاد confederacy. وقد يكون لكل عشيرة أو قبيلة الهتها أو صنمها كما كان في الجاهلية ود لقبيلة كلب ويغوث لمذحج وسواع لهذيل. وإذا انشطرت العشيرة أو القبيلة إلى نصفين، إي إلى شقين متمايزين ومتزاوجين، أي أن كل منهما يُزوج الشق الآخر ويتزوج منه يصبح لدينا ما يسمى تنظيم مزدوج dual organization ويسمى كل واحد من هذين الشقين phratry أو moity، وهي كلمة مشتقة من الفرنسية وتعني النصف.

يتخذ تمفصل النسب العشائري شكلين؛ أحدهما يسمى انشطار انخزالي drifting والآخر يسمى انشطار تمفصلي segmentary. الانشطار الانخزالي يحدث حينما ينخزل قسم من العشيرة عن الفصيل الرئيسي ليشكل بنفسه فرعا قائما بذاته مع الاحتفاظ بصلته مع الفصيل الرئيسي. وقد تتوالى هذه الانخزالات بين كل فترة وأخرى كلما زاد عدد أفراد الفصيل الرئيسي وأصبح يشكل ضغطا على الموارد المحلية أو كلما حدثت اضطرابات أو نزاعات أو أي عوامل داخلية أو خارجية أخرى. كما أن الفصائل الفرعية حينما يزداد حجمها عن الحد الملائم تنخزل منها فصائل أصغر، وهكذا. وبذلك تصبح علاقة الفصائل الفرعية بالفصائل الرئيسية أشبه بالتلاع التي تصب في الشعاب والشعاب التي تصب في مجرى الوادي.

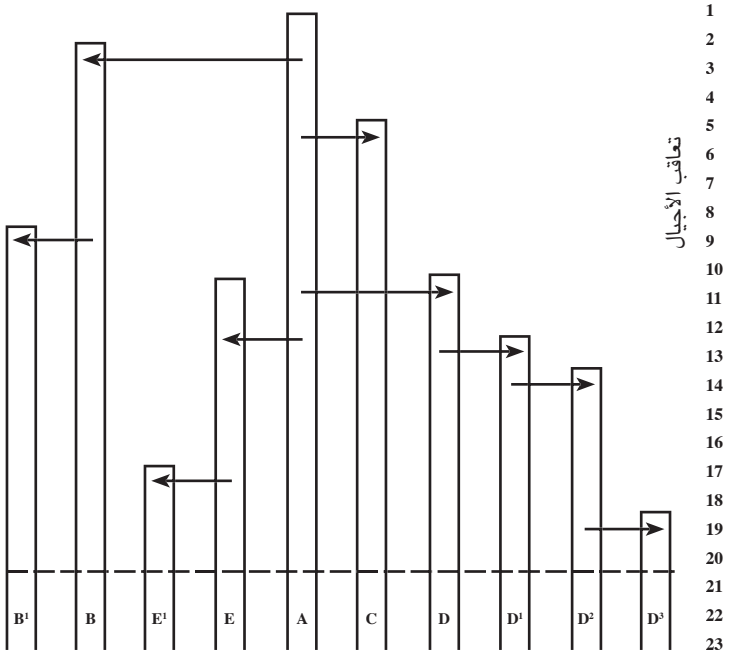

الانشطار الانخزالي. يشكل العمود A الأصل الذي انخزل منه B و C و D و E ، ومن B انخزل 1B ومن E انخزل 1E ومن D انخزل 1D ومنه انخزل 2D ومنه انخزل 3D.

لكن الشكل الأكثر شيوعا بين العشائر هو الانشطار التمفصلي، ويسمى كذلك نظرا لقابليته للانشطار fission أو الالتحام fusion وفقا لمتطلبات الظروف الطارئة، كأن تنفصل القبيلة tribe إلى عشائر clans والعشيرة

إلى بطون maximal lineages والبطن إلى أفخاذ major lineages، والفخذ إلى بداید أو على العكس من ذلك تلتحم البداید في أفخاذ والأفخاذ في بطون والبطون في عشائر وتلتم العشائر في قبيلة واحدة. وهذا ما يحدث في المجتمعات القبلية التي تضطر فروعها للانقسام أو الالتحام وفق متطلبات الظروف، كأن تلتحم لغزو قبيلة أخرى أو احتلال مراعيها ثم تنشطر في حالات السلم أو حينما تحدث نزاعات داخلية بين أفخاذها. الباعث الأساسي لهذا التمفصل هو قابلية النسب الأحادي على النمو والانتشار مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال وما يتبع ذلك من انقسامات وتفرعات جراء شح الماء والمرعى أو نتيجة زيادة عدد الأنفس عن قدرة الموارد على إعاشتهم. يمكن مثلا لعدد من الأخوة من أب واحد يجمعهم فخذ واحد أن يؤسس كل منهم هو وأبناؤه بعدما يتزوج وينجب فصيلا جديدا بمسمى مستقل. وتصبح هذه الفصائل الجديدة فصائل فرعية متفرعة من الفصيل الأصل وتنتمي له. ولكن مهما باعدت المسافات بين هذه الفصائل فإنها تظل على علاقة مستمرة مع بعضها البعض بحكم انتسابها لنفس الفخذ أو البطن أو العشيرة (Evans-Pritchard 1951: 4-8; 1970: 192-203).

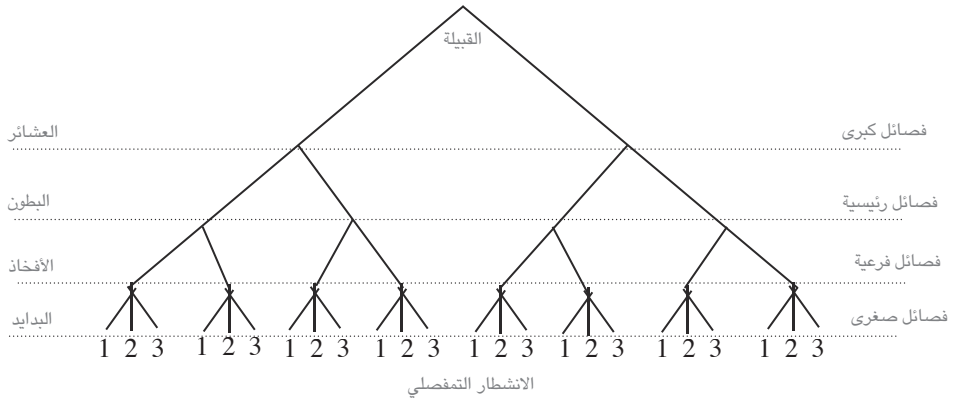

ومن الصعب أن يحدث هذا النوع من الانشطار التمفصلي في المجتمعات الأمومية لأن الأخ لا يستطيع تأسيس فصيل جديد بدون الأخت التي يحتاجها لتنجب أطفالا ينتسبون للأخت ويضمنون استمرار الفصيل الأمومي، كذلك الأخت أيضا، كما سبق وأن بينا، لن تستطيع تأسيس فصيل بمفردها إذ أنها تحتاج إلى وجود أخيها بجانبها ليقوم بتربية أبنائها وتولّي شؤون السلطة وتدبير علاقات العشيرة مع العشائر الأخرى، لأن الزوج لن يفيدها شيئا في هذا الأمر بحكم طبيعة وتكوين المجتمع الأمومي، فالزوج سيكون مشغولا في تدبير شؤون أخته وعشيرتها وتربية أبنائها. لو تساوى عدد الإخوة مع عدد الأخوات، وهذا نادرا ما يحدث، فلن تكون هناك مشكلة، إذ ينفرد كل أخ بواحدة من الأخوات ويؤسسان لهم عشيرة جديدة. لكن لو كان لدينا مثلا أخت واحدة وثلاثة أخوة أو أخ واحد وثلاث أخوات فإنه من الصعب تقسيم الأخ الواحد بين الأخوات الثلاث أو تقسيم الأخت الواحدة بين الإخوة الثلاثة. يصعب تأسيس فرع جديد في المجتمع الأمومي بدون الأخ والأخت معا، وهذا أمر قد لا يتوفر في كل الأحوال. أما في المجتمع الأبوي فإن الإخوة لا يحتاجون لأخواتهم لتأسيس فرع جديد، فكل ما يحتاجونه هو زوجات يمكنهم الحصول عليهن من أي مصدر لينجبن لهم الأطفال، والحصول على الزوجة أمر سهل المنال (Fox 1971: 128).

العلاقات التمفصلية بين البدايد داخل الأفخاذ وبين الأفخاذ داخل البطون والبطون داخل العشائر والعشائر داخل القبيلة علاقات بنيوية تقابلية (ومن هنا سميت القبيلة قبيلة) ذات طابع سياسي في جوهرها وإن اتّشحت بلباس العلاقات القرابية. حينما نتحدث عن الأفخاذ والبطون والعشائر كفصائل فرعية أو رئيسية داخل القبيلة فإن منحى الحديث يتحول من العلاقات القرابية بين الأشخاص من الأهل والأقارب إلى العلاقات ذات البعد السياسي التي تربط بين هذه الفصائل لا كأفراد متمايزين وإنما كجماعات كل منها يشكل كتلة متراصة ومتجانسة. قد يتمايز الأفراد داخل الفصيل الواحد وقد تتفاوت علاقاتهم بعضهم ببعض تبعا لقربهم أو بعدهم أحدهم عن الآخر على المستوى العائلي، لكن علاقة أي منهم مع أي من أفراد الفصيل المقابل لفصيلهم في التسلسل الهرمي للنظام القبلي تكون على نفس المستوى وعلى نفس المسافة، بحيث لا يكون أيا منهم أقرب ولا أبعد من الآخر في علاقته مع أفراد الفصيل المقابل، ويتحدد انتماء الأفراد داخل الفصيل وولاؤهم السياسي من خلال انتمائهم لجد مشترك. علاقة الفصائل مع بعضها البعض علاقة تناظرية سيمِتْريّة symmetrical تتخذ شكلا هرميا. فإذا ما استثنينا الفصيل الأكبر، أي العشيرة، والفصيل الأصغر، أي الفخذ، في هذا التشكيل الهرمي فإن كل فصيل من الفصائل الواقعة بين هذين الطرفين يتكون من فصائل صغرى تكاد تكون متساوية في الحجم والقوة co-ordinate، وفي الوقت نفسه يدخل ذلك الفصيل مع الفصائل المقابلة له كوحدات أصغر ضمن فصيل أكبر. الفصائل الفرعية التي تنتسب لجد واحد تجتمع في فصيل رئيسي لكن كل منها مستقل في تدبير شؤونه وقد تتعايش في حالة تضاد أحدها مع الآخر إلا أنها تضطر أحيانا لأن تتحد مع بعضها في مواجهة فصائل أخرى يجمعها جد آخر مقابل لجدهم، وبذلك يصبح لدينا فصيلان رئيسيان متضادان، ثم يتحد هذان الفصيلان الرئيسيان مقابل فصيل أكبر مناظر لهما، وهكذا. ويتخذ هذا النمط التقابلي من العلاقات طابع المرونة والنسبية من ناحيتين، فمن الناحية الأولى يمكن لأي فرد أو أي جد أن يشكل مفصلا ينشطر منه فصيلا مستقلا ومن ناحية أخرى تتحدد هوية كل فصيل من واقع علاقته مع الفصيل المقابل له الذي يلتقي معه على نفس المستوى من التنظيم الهرمي والذي بحكم ذلك يتخذ موقعا بنيويا مقابلا له ويكاد يتعادل معه في القوة والحجم. بمعنى أن الفصيل (أ) قد يجد نفسه في حالة تضاد مع الفصيل (ب) في مسألة من المسائل وكذلك الفصيل (ج) في حالة تضاد مع الفصيل (د)، لكن الفصيلين (أ/ب) بحكم قربهما في النسب يتحدان عند الضرورة ضد الفصيلين (ج/د)، أو كما يقول المثل: أنا وأخي على ابن عمي وانا وابن عمي على الغريب. وهكذا تعيش البدايد والأفخاذ والبطون والعشائر داخل القبيلة الواحدة في حالة تجاذب مستمر بين قوى الشد وقوى الصد. هذا التوتر والثارات المستمرة بين الفصائل على مختلف المستويات من الفصيل الأصغر إلى الفصيل الأكبر والأشمل هي التي تساعد على تمتين الوحدة الداخلية والتماسك لكل فصيل من جهة، كما أنها في نفس الوقت تحافظ على تمايز هذه الفصائل أحدها عن الآخر وتضمن عدم ذوبانها في بعضها البعض. ويوجد هذا البناء التناظري أكثر ما يوجد عند القبائل الرعوية المرتحلة التي تقوم العلاقات بينها ليس على المواطنة والارتباط المكاني والاستقرار في وطن واحد وإنما على أواصر النسب الحقيقية أو المفترضة، كما هو الحال عند قبائل البدو العربية وعند القبائل الصومالية (Lewis 1961: 1-7) وقبائل النوير جنوب السودان (Evans-Pritchard 1970: 139-50).